



جامعة آل البيت
Al al-Bayt University

جامعة آل البيت
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

أشكال التعبير النثري في كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي

"دراسة موضوعية فنية"

*Forms of Prose Expression in Ibi Hayyan
al-Tawhidi's Work Entitled al-Basair wal-Dhakhair.
A Topical, Artistic Study*

إعداد الطالب:

ياسر مخلص محمود الجبوري

الرقم الجامعي 1320301029

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد محمود الدروبي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية
وآدابها

الفصل الدراسي الأول 2016/2015

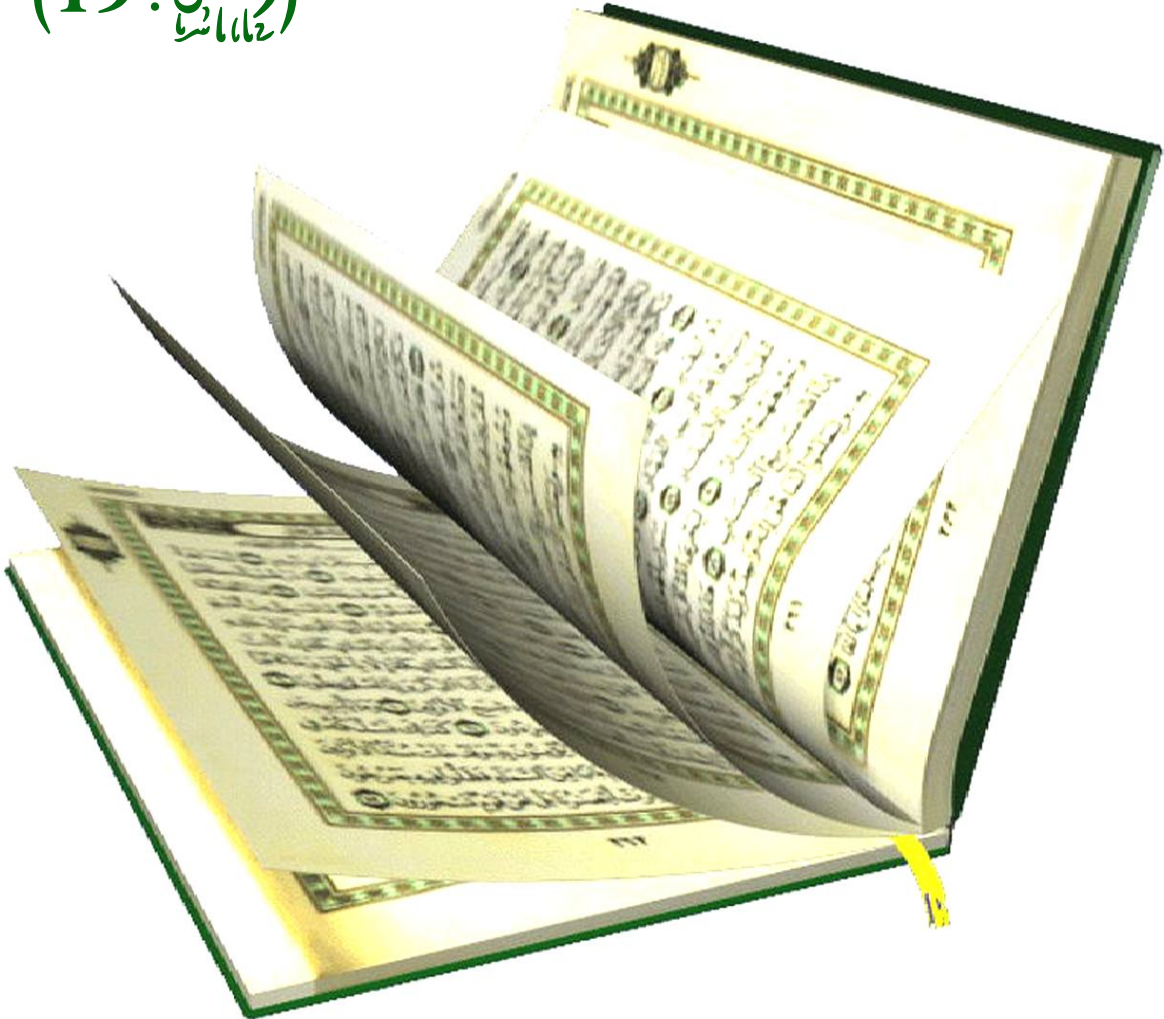
قَالَ تَعَالَى:

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى

وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي

عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

(النمل: 19)



التفويض

أنا الطالب: ياسر مخلص محمود الجبوري، أفوض جامعة آل البيت بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات والمؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافذة في الجامعة.

التوقيع:

التاريخ: / /

الإقرار

أنا الطالب: ياسر مخلص محمود الجبوري الرقم الجامعي: 1320301029

التخصص: اللغة العربية

أعلن بأنني قد التزمت بقوانين جامعة آل البيت وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية
المفعول المتعلقة بإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه عندما قمت شخصياً بإعداد رسالتي
بعنوان:

أشكال التعبير النثري في كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الرسائل والأطاريح
العلمية. كما إنني أعلن بأن رسالتي هذه غير منقولة أو مستله من رسائل أو أطاريح أو كتب
أو أبحاث أو أي منشورات علمية، فإنني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير
ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في جامعة آل البيت بإلغاء منحي الدرجة العلمية التي حصلت
عليها وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها، دون أن يكون حق لي في التظلم والاعتراض
أو الطعن بأي صورة كانت.

التاريخ: / /

توقيع الطالب:.....

قرار لجنة المناقشة

أشكال التعبير النثري في كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي

"دراسة موضوعية فنية"

*Forms of Prose Expression in Ibi Hayyan
al-Tawhidi's Work Entitled al-Basair wal-Dhakhair.
A Topical, Artistic Study*

إعداد الطالب:

ياسر مخلص محمود الجبوري

الرقم الجامعي ١٣٢٠٣٠١٠٢٩

التوقيع	أعضاء لجنة المناقشة
	الأستاذ الدكتور: محمد محمود الدروبي (مشرفاً ورئيساً)
	الأستاذ الدكتور: أمين يوسف عودة (عضواً)
	الدكتورة: مها عبد القادر مبيضين (عضواً)
	الدكتور: علي أحمد المومني (عضواً خارجياً)

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

نوقشت وأوصي بإجازتها بتاريخ ٢٩ / ١٢ / ٢٠١٥



إلى من أدين لهم بحياتي بعد الله عز وجل.

إلى والديّ - أطل الله في عمرها - اللذين شجعاني من أجل

أن أكون طالب علم ، وأحاطاني بكل عطفه ورعاية لتحقيق

ذلك جزاهما الله خير الجزاء.

إلى زوجتي وأولادي الذين تحملوا عناء فراقتي.

إلى أخي وأخواتي الذين مدوا إلي يد العون والمساعدة.

إلى أصدقائي وزملاء الدراسة الأعزاء.

إلى كل من أسهم معي في إخراج هذه الرسالة إلى الوجود.

إلى جيل قادم لا محالة .

إليهم جميعاً أهدي ثمرة جهدي عرفاناً وتقديراً.

وجزاهم الله عني خير الجزاء

الباحث

ياسر مخلص الجبوري



أتوجه بالحمد والشكر والتقدير إلى خالق الكون ومبدعه في الأولى والآخرة الذي علم الإنسان ما لم يعلم، رب العزة والجلالة.

ومن دواعي الشكر والتقدير والفضل ووفاء مني لأهل الفضل والموقف الجميل لا يسعني إلا أن بالشكر الجميل مع احترامي وامتناني إلى قدوتي ومثلي الأعلى أستاذي الفاضل المشرف على الرسالة الدكتور (محمد محمود الدروبي) على ما قدمه لي من عون وما بذله معي من جهد وعناء في قراءة الرسالة، إذ أغناها بأرائه الحكيمة الصائبة، وتوجيهاته السديدة نحو المنهج الدقيق في البحث إلى أن وصلت الرسالة إلى ما وصلت إليه فجزاه الله عني كل خير.

وانتقد بالشكر والامتنان إلى أعضاء لجنة المناقشة الكرام لقبولهم مناقشة هذا البحث وتقويمه، وبيان هفواته، داعياً المولى عز وجل أن يجزيهم عني خير الجزاء.

ويسعدني أن اتقدم بالشكر والعرفان إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية - الدراسات العليا - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة آل البيت، وبارك الله في عملهم الوافر ووفقهم لما يحبه ويرضاه.

كما أتقدم بوافر شكري وامتناني إلى أهلي الذين كانوا سنداً وعوناً لي من أجل إتمام رحلتي في طلب العلم.

الباحث

ياسر مخلص

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
الآية القرآنية.....	ب
التفويض.....	ج
الإقرار	د
قرار لجنة المناقشة	هـ
الإهداء	و
الشكر والتقدير	ز
قائمة المحتويات	ح
الملخص باللغة العربية	م
المقدمة	1
التمهيد: أبو حيان التوحيدي وكتابه البصائر والذخائر دراسة عامة.....	3

الفصل الأول

أشكال التعبير النثري في كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي

دراسة موضوعية	13
أولاً: الأمثال.....	13
أ- أنواعها.....	15
1. المثل الحكمي	15
2. المثل المولد	16
3. المثل الواقعي	16
4. الأمثال العامة أو الشعبية	17
ب- مصادر الأمثال	18
1. المصادر الجاهلية	18
2. المصادر الإسلامية.....	19
3. الصحابة رضي الله عنهم.....	19

20	4. عصر بني أمية.....
20	5. عصر المولدين.....
21	ج- وظائف الأمثال.....
21	1. وظيفة تربوية تعليمية.....
22	2. وظيفة استدلالية توجيهية.....
23	د- موضوعات الأمثال.....
23	1. الموضوعات الخُلقية.....
24	2. الموضوعات الاجتماعية.....
25	3. الموضوعات الاقتصادية.....
25	4. موضوعات الصفات المعنوية.....
26	ثانياً: الرسائل.....
26	أ- أنواعها.....
26	1. الرسائل السياسية والديوانية (الرسمية).....
28	2. الرسائل الإخوانية.....
30	3. الرسائل الوعظية.....
32	ب- مصادرها.....
32	1. عصر صدر الإسلام.....
33	2. العصر الأموي.....
34	3. العصر العباسي.....
35	ج- وظائفها.....
37	د- موضوعاتها:.....
42	ثالثاً: الخطب.....
43	أ- أنواعها.....

42	1. الخطب الدينية والوعظية.....
45	2. الخطب السياسية.....
48	ب- مصادرها.....
48	1. مصادر جاهلية.....
49	2. مصادر إسلامية.....
50	3. العصر الأموي.....
50	4. العصر العباسي.....
51	ج- وظائفها.....
53	د- مضامينها.....
54	رابعاً: التوقعات.....
56	أ- تعريفها.....
58	ب- أنواعها.....
60	ج- مصادرها.....
60	1. العصر صدر الإسلام.....
60	2. العصر الأموي.....
61	3. العصر العباسي.....
61	د- موضوعاتها.....
68	خامساً: الوصايا.....
68	تعريفها.....
69	مصادرها.....
70	وظائفها.....
72	موضوعاتها.....

الفصل الثاني

أشكال التعبير النثري في كتاب البصائر والذخائر- دراسة فنية.

75	أولاً: الأمثال
75	أ- بناؤها
78	ب- أسلوبها البلاغي
78	1. الصورة.....
81	2. الأساليب اللغوية
84	3. الخصائص العامة.....
88	ثانياً: الرسائل
88	أ- بناؤها
94	ب- أسلوبها
94	1. الصورة
95	2. اللغة
98	3. الخصائص العامة.....
99	ثالثاً: الخطب
99	أ- بناؤها
103	ب- أسلوبها
103	1. الصورة.....
104	2. اللغة
107	3. الخصائص العامة.....
108	رابعاً: التوقيعات.....
108	أ- بناؤها
110	ب- أسلوبها
110	1. الصورة.....

112	2. اللغة
114	3. الخصائص العامة
117	خامساً: الوصايا
117	أ- بناؤها
119	ب- أسلوبها
119	1. الصورة
119	2. اللغة
121	3. الخصائص العامة
122	الخاتمة
123	قائمة المصادر والمراجع
129	الملخص باللغة الإنجليزية

الملخص بالعربية

تطمح هذه الدراسة إلى الوقوف على أشكال التعبير النثري في كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، دراسة موضوعية وفنية، فهو كتاب تعددت ألوانه النثرية. وقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وفصلين اثنين وخاتمة، أما التمهيد فتضمن الحديث فيه عن مكانة أبي حيان التوحيدي بين أدباء عصره، وما كان يمتاز به أدبه من تنوع في موضوعاته إضافة إلى شخصيته الأدبية والعلمية، ثم سيرته الذاتية، والتي تضمنت اسمه ولقبه، ومولده وأصله، وثقافته، ثم الحديث عن مؤلفه كتاب البصائر والذخائر، من حيث مصادره وقيمه الأدبية والعلمية، والتقسيمات التي جرى عليها الكتاب، ثم عناية القدامى والمعاصرين بهذا الكتاب.

أما الفصل الأول، فقد اختص بالدراسة الموضوعية لأشكال التعبير النثري في هذا الكتاب، كالأمثال، والرسائل، والخطب، والتوقيعات، والوصايا، وقد أثارت تساؤلات رئيسة في هذا البحث، وهي:

- ما أنواع الأشكال التعبيرية النثرية في كتاب البصائر والذخائر؟
 - وما المصادر التي أخذت عنها هذه الأشكال؟
 - وما وظائف كل شكل من هذه الأشكال؟
 - وما الموضوعات التي تناولتها تلك الأشكال؟
- وتناولت الدراسة الفنية في فصلها الثاني معالم البناء الفني لكل شكل من هذه الأشكال من حيث بناؤها، والأسلوب الذي اشتملت عليه الصورة واللغة، إضافة إلى الخصائص العامة التي يتسم بها كل شكل منها.
- وقد تبين من ذلك أن هذا الكتاب تضمن نصوصاً وأخباراً أغنت التراث الأدبي في القرن الرابع الهجري والتي جمع الكثير منها من أمات الكتب، وشكلت صورة واضحة عن اهتمامات التوحيدي النثرية حتى أصبح هذا الكتاب مصدراً أصيلاً من مصادر النثر العربي، فصار له قيمة أدبية كبيرة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد ...
فيمثل النثر العربي لونا مهماً من ألوان الأدب العربي، ويُعد تراثاً عريقاً وثروة فنية وثقافية وفكرية واجتماعية وسياسية على قدر كبير من الأهمية.

ورغم الدراسات الكثيرة التي تناولت النثر العربي في كل العصور بالبحث، فإن هذا الجنس الأدبي ما زال محتاجاً إلى مزيد من البحوث والدراسات، ومن هنا جاءت هذه الرسالة لتتناول أشكال التعبير النثري في كتاب " البصائر والذخائر " لأبي حيان التوحيدي، الذي يعدّ من أشهر كتبه الأدبية وأوسعها، حيث إنه يمثل ركيزة أعماله التأليفية، وقد تضمن أخباراً ونصوصاً كثيرة، وقد امتاز بالثراء والتنوع، فهو مصدر أصيل جدير بالدراسة.

وقد جاء هذا الكتاب محققاً في عشرة أجزاء، وتضمن أشكالاً عدة للتعبير النثري، كالأمثال، والرسائل، والخطب، والتوقعات، والوصايا، وهي الأشكال التي يتناولها البحث بالدراسة: موضوعاً وفناً حيث شكلت هذه المادة النثرية جزءاً أصيلاً من مواد هذا الكتاب الموسوعي.

ومن المعروف عن أبي حيان التوحيدي أنه نَهَجَ نَهَجَ الجاحظ في أسلوبه الكتابي حتى قيل أنه "كان جاحظياً يسلك في تفاصيله مسلكه، ويشتهي أن ينتظم في سلوكه" لكنه لم يقف عند حدوده، بل حاول أن يتخذ طريقة جديدة في التأليف والإنشاء.

وقد اهتم التوحيدي بقضايا جوهرية في هذا الكتاب حيث جمع أشكالاً متنوعة في آن واحد، وهذا يدل على سعة ثقافته وغزارة علمه وقوة حفظه.

ومن أشهر المؤلفات التي تضمنت الأشكال التعبيرية النثرية: أمثال العرب للمفضل الضبي، والبيان والتبيين للجاحظ، والأمثال السائرة لحمزة بن حبيب الأصبهاني، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، وتحفة الوزراء للثعالبي، ومجمع الأمثال للميداني، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشندي، وتمثال الأمثال لأبي المحاسن محمد بن علي الشيبلي.

وبالتالي، فقد دعت الحاجة إلى أن تستند هذه الدراسة إلى المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بالوقوف على كل شكل من هذه الأشكال وتحليل مضامينها والوقوف على خصائصها الفنية مفيدة من طاقات المنهج الجمالي الذي من شأنه إبراز قيمة الشكل النثري.

كما تعتمد الدراسة على المنهج التاريخي في تتبع الأحداث التي نتجت عنها هذه الأشكال النثرية في عصور تاريخية مختلفة .

وقد قامت الدراسة على مقدمة وتمهيد وفصلين اثنين وخاتمة
فأما التمهيد، فهو يرسم صورة عامة عن سيرة أبي حيان التوحيدي وكتابه البصائر
والذخائر.

وأما الفصل الأول، فقد اختص بالدراسة الموضوعية لكل شكل من الأشكال التعبيرية
النثرية في هذا الكتاب، فتناول الأمثال، والرسائل، والخطب، والتوقيعات، والوصايا، مع ما
يتصل بها من أنواع ومصادر، ووظائف وموضوعات.

وجاء الفصل الثاني ليتناول بالدراسة معالم البناء الفني لكل شكل من هذه الأشكال مع
الصورة البلاغية والأساليب اللغوية التي تشكلت منها بنية الشكل النثري.
كما ألحقت بالبحث خاتمة، تضمنت أهم النتائج التي خرج بها الباحث خلال هذه
الدراسة.

التمهيد:

يعدُّ أبو حيَّان التوحيدي من أبرز أدباء القرن الرابع الهجري، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته، إذ يتناول كثيراً من جوانب الثقافة والفكر العميق، والإلهيات والطبيعيات والإنسان والأخلاق والنفس، فأدبه يحمل كثيراً من المعاني كما عُنِيَ في الوقت نفسه بالألفاظ عناية فائقة، وأعجب بأسلوب الجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر ت 255هـ) في المزاج، فأصبح هذا الأسلوب بالترادف وما تبعه من التقطيع الصوتي طابعاً مميزاً للتوحيدي⁽¹⁾.

ويختلف عمل التوحيدي عن أعمال كتّاب الأخبار والأقاصيص أشدَّ الاختلاف، فهو لا يهتم بأهل البادية، ولا يسلك مسلك الرواة الذين يُعنون بتقيد الغريب من الأخبار والأشعار، وإنما يهتم بالنواحي التاريخية والأدبية من حياة الرجال، فهو الذي دوّن المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومثي بن يونس في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني، وهذه المناظرة تدل على قوة عجيبة في التوحيدي، وهي مثل أعلى في لغة الجدل والحوار بين المتناظرين⁽²⁾.

وقد اجتمعت في التوحيدي شخصيتان: شخصية الأديب الذي تغطي عليه النزعة الوجدانية، وشخصية العالم الباحث الذي انطوت مؤلفاته على مختلف معارف عصره، سعه ميل إلى الجدل وإجلال العقل⁽³⁾.

اسمه ولقبه:

كان من العسير على من تصدّوا لكتابة سيرة التوحيدي إيجاد ترجمة له متصلة الحلقات، متسلسلة الوقائع، فإن أخباره المبعثرة في ثنايا الكتب والمصادر لم تفدنا شيئاً في معرفة أصله ونشأته، ومكان ولادته، وهذا ما جعل الأخبار عنه قليلة ومتضاربة إن وجدت، وما عرف منها لم يسلم من التحريف والوضع والتحايل لأن أبا حيَّان كان ذا مزاج خاص ولسان حاد طويل، وطبيعة شاذة زارها انحرافاً وضراماً خلاقه مع أهل زمانه مما جعله يقضي شطراً كبيراً من حياته مستتراً صوناً لشخصيته، وخشية أذى الناس وبطش السلطان⁽⁴⁾.

(1) حمود، خضر موسى محمد، الجواظ في الأدب العربي، ط1، عالم الكتب، بيروت، 2006م، ص233.

(2) مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2010م، ج1، ص346.

(3) أبو زيد، سامي يوسف، الأدب العباسي النثر، ط1، دار المسيرة، عمان، 2011م، ص111.

(4) الكيلاني، إبراهيم، من كتاب الإمتاع والمؤانسة، دط، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978م، ص18.

ولم يرد اسمه في المصادر القديمة أكثر من أنه علي بن محمد بن العباس، وأبو حيّان كنيته، والتوحيدي لقبه، بيد أن اسمه ورد بصورة أخرى منها: أبو حيّان أحمد بن العباس الصوفي التوحيدي، وعلي بن أحمد بن العباس التوحيدي، وعلي بن محمد بن أحمد بن العباس الصوفي أبو حيّان التوحيدي، بيد أن الاسم الأول هو المتفق عليه في أكثر المصادر التي ذكرته⁽¹⁾.

وقد ذكر في مقدمة الإمتاع والمؤانسة كنيته ولقبه، وورد اسمه وكنيته ولقبه واسم أبيه في رسالة الكتابة، ولم يرد اسمه أو اسم أبيه فيما بقي من كتب في غير رسالة الكتابة، وقيل في لقبه ونسبه: إن أباه كان يبيع نوعاً من التمر يسمى "التوحيدي"⁽²⁾.

أما من حيث أرجحية اللقب، فقد ذهب الدكتور فوزي أمين إلى اللقب المنسوب إلى لون التمر، لأن اللقب لو كان نسبة إلى التوحيدي بمعناه العقدي لتحدث عنه أبو حيّان التوحيدي في كتبه، وربما وردت الشبهة من عبارة ياقوت في الحديث عن أبي حيّان، إذ فهم منها أنه معتزلي، غير أن ياقوت لم يقل: إنه معتزلي وإنما قال: درس الكلام على رأي المعتزلة، وليس كل دارس لآراء المعتزلة معتزلياً⁽³⁾، لكن أبا حيّان، برغم ذكره لكنيته في كتبه، لم يعرف هذا اللقب، ربما لخوفه من نسبة نفسه لبيع التمر⁽⁴⁾.

وقد جاءت نسبة التوحيدي إلى نوع من التمر الجيد مسمى بهذا الاسم، كان أبوه يبيعه، فورث عنه علي ابنه تلك الصفة، التي كانت مورد رزقه كما كانت لأبيه من قبل، ثم تركها علي إلى احتراف الوراقة، والعناية بنسخ الكتب، التي مكنته من إتقان الخطوط بأنواعها⁽⁵⁾.

(1) عمر، فائز طه، النشر الفني عند أبي حيّان التوحيدي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000م، ص13.

(2) انظر: الشيخ، محمد عبد الغني، أبو حيّان التوحيدي رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، د.ط، الدار العربية للكتاب، دن، 1983م، ج1، 153.

(3) انظر: أمين، فوزي محمد، في النشر العباسي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000م، ص15.

(4) طنوس، وهيب، في النشر العباسي، د.ط، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، 1989م، ص330.

(5) شلق، علي، أبو حيّان التوحيدي والقرن الرابع الهجري، ط1، دار الاجتهاد، بيروت، 2003م، ص13.

مولده:

لم يُذكر شيء في المصادر القديمة، يحدد سنة مولده إلا أن التوحيدي نفسه ذكر في رسالته التي أوردتها ياقوت في معجمه، والتي كتبها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد الذي عدله على إحراق كتبه، كما ذكر ياقوت، ذكر فيها أنه "في عشر التسعين" عندما كتبها، حيث قال ياقوت: "إن صاحبنا قد كتب هذه الرسالة (في شهر رمضان سنة أربعمئة) وعلى هذا فإن سنة ولادته كانت بعد (310) للهجرة ... ثم تعدد الخلاف بين الباحثين في تحديدها، ولكنهم جميعاً حصروها بين سنتين 310-320 للهجرة ولا نريد إضافة احتمال آخر لما ذكره، بل نكتفي بالظن إنه ولد بعد سنة 310 للهجرة استناداً إلى ما ورد في رسالته السالفة"⁽¹⁾.

وقال الدكتور إبراهيم الكيلاني: إن ما تجمّع لدينا من معلومات حملنا على القول إنه ولد سنة 310هـ من أبوين فقيرين⁽²⁾.

وذكر الدكتور سامي يوسف: إن ولادة أبي حيّان التوحيدي حوالي سنة 310 من أبوين فقيرين⁽³⁾.

ويرى محمد عبد الغني الشيخ من الصعوبة بإمكان تحديد زمن مولده تحديداً قاطعاً، والراجح أنه ولد حوالي سنة 310هـ في بغداد⁽⁴⁾.

أصله:

لقد تعدد الخلاف حول أصل أبي حيّان التوحيدي، فقد ذكره ياقوت الحموي على أنه: "شيرازي الأصل وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي"⁽⁵⁾.

ومن ثم اختلف المؤرخون في أصله فمن قائل: "إنه فارسي الأصل شيرازي، أو نيسابوري، أو واسطي، إلى قائل إنه عربي نشأ في بغداد، ثم وفد إلى شيراز، ويعترف ياقوت بأنه يجهل تماماً أصل التوحيدي ونشأته، وإذا كان ياقوت قال عنه إنه عمدة لبنى ساسان فهو يقصد بذلك نسبته إلى الفقر والسؤال والكدية، ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أن التوحيدي

(1) عمر، فائز طه، النثر الفني عند أبي حيّان التوحيدي، مصدر سابق، ص14.

(2) الكيلاني، إبراهيم، من كتاب الإمتاع والمؤانسة، مصدر سابق، ص18.

(3) أبو زيد، سامي يوسف، الأدب العباسي النثر، مصدر سابق، ص111.

(4) انظر: الشيخ، محمد عبد الغني، أبو حيّان التوحيدي رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، مصدر سابق، ج1، ص154-155.

(5) الحموي، ياقوت بن عبد الله، ت 626هـ، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامية، بيروت، 1993م، ج5، ص 1932.

(من أولئك الموالي الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر فكوّنت مركباً غريباً)، ويعود فيرجح أنه فارسي مع احتمال دخول أجناس أخرى في نسبه⁽¹⁾.

وذكر محمد علي كرد أنه عربي، وما كان يعرف الفارسية، ولو ولد في فارس لكان يتكلم بها⁽²⁾. وقال الدكتور فوزي أمين: "ونحن حول أبي حيّان في خلاف ثالث هل هو عربي صريح أو أنه فارسي، والذي نعرفه من أخبار أبي حيّان إنه لم يكن يعرف الفارسية..."⁽³⁾. ومن غير الممكن تحديد نسبة معينة واحدة يستطيع من خلالها ترجيح أصله، فلا تعني نسبة إلى المدن انتساباً إلى قومية دون أخرى ... ولا أظنّ من السهولة البت في موضوع أصله العرقي بشكل نهائي وحاسم، فنسب الرجل غير معروف⁽⁴⁾.

ثقافته:

كانت بيئة أبي حيّان في بغداد حافلة بالعلماء مؤّارة بالحركة الدائبة، تعمّر مساجدها بحلقات الدرس، وبيوت خاصتها بندوق الفكر، ومحافلها بطلاب العلم، فجماعات من العلماء تجتمع غالباً حول أبي سليمان السجستاني في بيته، أو تتقابل لدى الوراقين في سوق إمام البصرة في بغداد حيث يوجد أكثر من مئة وراق بحوانيتهم وكانت الجماعة مكونة من أناس مختلفي المشارب والنحل، وكانت تجمع بين المسلمين المختلفي المذاهب⁽⁵⁾.

إن النظر إلى ثقافة التوحيدي على أنها موسوعية جامعة أمر يحوي الكثير من الصحة، فهو من أبرز كتّاب الموسوعات؛ إذ ضمنت كتبه الكثير من معارف عصره، إن لم نقل أبرزها... ولا حاجة لتفعيل القول فيها، وتكفيها شهادة ياقوت عنه التي قال فيها أنه (كان متقناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه...) ومن المهم أن نشير إلى أبرز روافد ثقافته الموسوعية، لنكون على بينة من السبل التي سلكها في تحصيله المعرفة. لعل حرفة الوراقية من أهم روافد ثقافة كاتبنا، فلقد عمل بها وكانت مصدراً لرزقه، في أوقات كثيرة، ويبدو أنه كان يحسنها خطأ ومعرفة بتفصيلاتها... والرافد الآخر لثقافة التوحيدي شيوخه⁽⁶⁾.

(1) الشيخ، محمد عبد الغني، أبو حيّان التوحيدي رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، مصدر سابق، ص156.

(2) كرد، محمد علي، أمراء البيان، مصدر سابق، ص449.

(3) أمين، فوزي محمد، في النثر العباسي، مصدر سابق، ص15.

(4) انظر: عمر، فائز طه، النثر الفني عند أبي حيّان التوحيدي، مصدر سابق، ص14-15.

(5) الدقاق، عمر، أعلام النثر في العصر العباسي، مصدر سابق، ص237.

(6) عمر، فائز طه، النثر الفني عند أبي حيّان التوحيدي، مصدر سابق، ص16-17.

ومما زاد من ثرائه العلمي مُلَازمته للكثير من علماء عصره، حيث درس الفقه الشافعي على أساتذة ثلاثة: وهم: القاضي أبو حامد المَرَوَرُودي (المتوفى سنة 362هـ) وكان من أئمة الفقه " لا يشق غباره فيه" وكان التوحيدي كثير الملازمة لأبي حامد واللهج بذكره والتتبع لأقواله وأفعاله ... وكان ثاني أساتذته في الفقه الشافعي أبا بكر محمد بن علي القفال الشاشي (المتوفى سنة 365هـ) وكان فقيهاً محدثاً أصولياً لغوياً شاعراً. وكان ثالث أساتذته أبا الفرج المعافى بن زكريا النهراوني (305هـ-390هـ) وهو "أعلم الناس لفقه الطبري ونصرته والدفاع عنه، ودرس التوحيدي الفلسفة والمنطق على يد أبي زكريا يحيى بن عدي النصراني الذي انتهت إليه "رياسة أهل المنطق في زمانه"، كما درس الحكمة والمنطق على أبي سليمان محمد بن بهرام السجستاني، وكان من أعظم علماء عصره ... وهكذا أفاد التوحيدي، أديب الفلسفة وفيلسوف الأدباء، من هؤلاء الأعلام ثقافة إسلامية موسوعية، حقق فيها ذلك التعريف الشائع في العصر العباسي⁽¹⁾.

وهو من ناحية اللغة نحوها وصرفها حجة، ومرجع، ومن جهة البلاغة سيد سادة القلم آنذاك، أما علمه بالفلسفة، وعلوم العامة، والرياضيات، والفلك، فذلك يبدو من الأسئلة والأجوبة التي في المقابسات، والهوامل والشوامل، والإمتاع والمؤانسة⁽²⁾. وإضافة إلى ذلك كان أبو حيان ذا حظ كبير من علوم العربية كاللغة والنحو والتصريف، فضلاً عن معرفته بالفقه والشرعية والعبادات والعقائد، غير أن كلّ ما تقدم يكاد يصب في رحاب نفسه وعقله، فيرفد موهبته ويغني أصلته⁽³⁾. ولا شك أن كتاب البصائر والذخائر دليل واضح على سعت ثقافته ورجاحة عقله، إضافة إلى ما كتبه المؤلف من مؤلفات أخرى أغنت التراث الأدبي بأشكال نثرية متنوعة.

كتاب "البصائر والذخائر":

يمثل هذا الكتاب ثقافة أبي حيان الواسعة، وتجاربه الطويلة، وخبراته العميقة، وقد حوى على معارف أدبية ولغوية وإخبارية وتاريخية وفلسفية وحكمية ومجون⁽⁴⁾ كتاب ضخّم في عشرة أجزاء، ألفه التوحيدي بين عامي 350-365هـ⁽⁵⁾، وأودعه ما رآه وسمعه وحفظه في

(1) الكيلاني، إبراهيم، من كتاب الإمتاع والمؤانسة، مصدر سابق، ص 20-21.

(2) شلق، علي، أبو حيان التوحيدي والقرن الرابع الهجري، مصدر سابق، ص 14.

(3) الدقاق، عمر، ملامح النثر العباسي، مصدر سابق، ص 229.

(4) مئاع، هاشم صالح، الأدب العباسي، ط 1، مكتبة الفلاح، الكويت، 2011م، ص 321.

(5) طنوس، وهيب، في النثر العباسي، مصدر سابق، ص 341.

المجالس والدروس التي كان يحضرها، والكتب التي كان يقرأها، فهو كما يقول عنه: "ثمرة العمر، وزبدة الأيام، ووديعه التجارب"، وأشار التوحيدي في مقدمته إلى المصادر التي اعتمدها، وفي مقدماتها كتب الجاحظ (الذي كان مفتوناً به)، والكامل للمبرد، وعيون الأخبار... الخ. وقد تتبع فيه الطريقة الجاحظية من تنوع وانتقال واستطراد مع حرصه الدقيق على التحقيق، ونقل الكلام الصحيح⁽¹⁾.

ويسمى "البصائر والنوادر" وأحياناً "أخبار القدماء وذخائر الحكماء"، وعند التوحيدي نفسه "بصائر القدماء وسرائر الحكماء وخواطر البلغاء" وأحياناً يسميه "البصائر" وكلها أسماء لهذا الكتاب الضخم الذي ألفه التوحيدي في عشرة أجزاء... والكتاب من أشهر مؤلفات أبي حيّان، ولعله أول ما صنف أبو حيّان من مؤلفات، وهو ثمرة جهده على مدى خمسة عشر عاماً، وقد بدأ في تأليفه سنة خمسين وثلاثمائة، وانتهى منه سنة خمس وستين وثلاثمائة، إلا أنه زاد عليه أشياء بعد هذا التاريخ؛ لأنه ورد فيه بعض الأحداث التاريخية التالية لهذا التاريخ مثل قوله: كتب بعض الأدباء إلى سعدان في وزارته رقعة، فلما قرأ عبد الله قال: (ما أحسن ما احتال في شكوى حاله ففضى كل حاجة كانت له) وابن سعدان تولى الوزارة سنة 272هـ⁽²⁾.

ويحتوي هذا الكتاب على: "رياض الأدب، وقرائح العقول، من لفظ مصون وكلام شريف، ونثر مقبول، ونظم لطيف، ومثل سائر، وبلاغة مختارة، وخطب محبّرة، وأدب حلو، ومسألة دقيقة، وجواب حاضر، ومعارضة واقعة"⁽³⁾.

مصادر الكتاب:

يبين أبو حيّان منذ البداية أنه اعتمد في هذا الكتاب على مجموعة من المؤلفات التي تقدمته، وعدّد بعضاً منها في مقدمته على الجزء الأول فقال: "جمعت ذلك... من كتب شتّى حكيت عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكناني، وكتبه هي: الدرّ النثير، والنور المطير، وكلامه الصرف الحلال، ثم كتاب النوادر لأبي عبد الله بن زياد الأعرابي، ثم كتاب الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد الثمالي المعروف بالمبرد، ثم كتاب العيون لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري، ثم مجالسات ثعلب، ثم كتاب ابن أبي طاهر الذي

(1) طنوس، وهيب، في النثر العباسي، مصدر سابق، ص 341.

(2) الشيخ، محمد عبد الغني، أبو حيّان التوحيدي ورأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، مصدر سابق، ج 2، ص 758.

(3) حمود، خضر موسى محمد، الجاحظ في الأدب العربي، مصدر سابق، ص 245-246.

وسمه بالمنظوم والمنثور، ثم كتاب الأوراق للصولي، ثم كتاب الوزراء لابن عبدوس، والحيوانات لقدامة. هذا إلى غير ذلك من جوامع للناس مضافات إلى حفظ ما فاهوا به، واحتجوا له، واعتمدوا عليه، في محاضرتهم ونواديهم، وحواسرهم وبواديهم، مما يطول إحصاؤه، ويمل استقصاؤه...⁽¹⁾.

قيمة الكتاب:

لهذا الكتاب قيمة أدبية كبيرة أشار إليها المؤلف في مقدمته، حيث قال: إنه أودع كتابه جميع ما في ديوان السماع ورتب ما أحاطت الرواية به، واشتملت الرؤية عليه، منذ عام خمسين وثلثمائة إلى سنة خمس وستين وثلثمائة مع توخي قصار ذلك دون طواله، وسمينة دون غثه، ونادرة دون فاشية، وبديعة دون معتادة، ورفيعة دون سفسافة، قال: إن القارئ سيشف منه على رياض الأدب وقرائح العقول من لفظ مصون، وكلام شريف، ونثر مقبول، ونظم لطيف، ومثل سائر، وبلاغة مختارة، وخطب مُحَبَّرَة...⁽²⁾.

ويكشف الكتاب بوضوح عن غزارة علمه وثقافته الواسعة، وإطلاعه الهائل وقوة ذاكرته، ومن أهم ما يشير إليه الكاتب أمانته العلمية في النقل، فكثيراً ما تقع على أمثال هذه العبارات: هكذا قالت الثقات، أو هذا التفسير حفظته سماعاً، وأحكمته رواية، أو سمعت شيخاً من النحويين يقول، إلى غير ذلك مما يدل على الأمانة المطلقة⁽³⁾.

وفي الكتاب أحداث تاريخية مهمة، ربما لا يجرؤ إلا القليل على ذكرها، خوفاً من بطش الخلفاء والحكام، مثل القصة التي ذكر فيها أن علياً بن أبي طالب استعمل ابن عباس على البصرة، فأخذ من بيت المال، وخرج إلى مكة وطالبه عليّ برده فرفض، وقال: لأن ألقى الله بجميع ما في الأرض من ذهبها وفضتها، أحب إليّ من أن ألقاه بدم امرئ مسلم والسلام⁽⁴⁾.

وللكتاب قيمة في الكشف عن محصل مطالعة التوحيدي وتجاربه، وعن اتجاه مناحي الثقافة عنده، وفي المجالس التي كان يرأسها أساتذته وأرباب المعرفة في زمنه⁽⁵⁾.

(1) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، 414هـ، البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي، ط5، دار صادر، بيروت، 2010م، ج9، ص243.

(2) علي، محمد كرد، أمراء البيان، مصدر سابق، ص490.

(3) الشيخ، محمد عبد الغني، أبو حيان ورأيه في الإعجاز، وأثره في الأدب والنقد، مصدر سابق، ج2، ص762.

(4) المصدر نفسه، ص765.

(5) الكيلاني، إبراهيم، رسائل أبي حيان التوحيدي، د.ط، دار طلاس، سوريا، د.ت، ص87.

تقسيم الكتاب

عني التوحيدي في المقدمة بذكر المصادر التي قرأها واستمد منها مادة كتابه، فذكر في المقام الأول كتب الجاحظ الذي تأثر التوحيدي خطاه، واقتدى به في حياته الفكرية، وتوفر على قراءة كتبه وإدمان التأمل فيها،...، ويبدو المطالع للكتاب مدى تأثير طريقة الجاحظ في التأليف من حيث حشر الموضوعات المتنوعة دون ترتيب، أو تبويب أو تصنيف، ومزج الجد بالهزل، والهزل بالجد ترويحاً عن القارئ⁽¹⁾.

ثم بدأ التوحيدي كتابه بالدعاء على طريقة الجاحظ، وبه فتح ذلك الكتاب ليفتح مستغلق كل باب في نفس القارئ، وجرى فيه على نسق بديع ممتاز، رسم أعلى طريقة كتابية للجزالة، والإيقاع في مختلف عصور الأدب العربي، التي تلت القرن الرابع الهجري، ثم يوجه كلامه إلى من ألف لأجله الكتاب، بعد الثناء على كتب الجاحظ والمبرد، وابن قتيبة، وابن الأعرابي، وتغلب، والصولي، وقدامة، ثم يرجع إلى كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعدة فضلاء من جهازة الفكر والقلم مازجاً النثر بالشعر، والأدب بالعلم، والدين بالصوفية، والحكمة بالمثل، والتاريخ بالفلسفة⁽²⁾.

اعتناء القدامى والمعاصرين به

وعلى هذا الكتاب اعتمد كثير من المؤلفين في بعض المواد، فقد أخذ منه القاضي الجرجاني الثقفي المتوفى سنة 428هـ في كنايات الأدباء، وأخذ منه ياقوت في معجم الأدباء، وفي ترجمة أحمد بن سهل البلخي، وأبي الحديد في شرح نهج البلاغة، كما أخذ منه أبو إسحاق برهان الدين بن الوطواط في كتابه غرر الخصائص الواضحة، وقد ظل الكتاب مخطوطاً مبعثراً في عدة مكتبات متفرقة في أنحاء العالم حتى وفق الأستاذ أحمد أمين والسيد أحمد صقر إلى تحقيقه ونشره، أو على الأصح نشر نتف منه في جزء متوسط سنة 1953م بالقاهرة، ثم عثر الدكتور إبراهيم الكيلاني على مخطوطات تحتوي على معظم أجزاء الكتاب فقام بتحقيق ونشر أربع مجلدات ضخمة في ستة أجزاء، صدرت في دمشق سنة 1964م وظهر المجلد الرابع بعد الثلاثة الأولى بقليل⁽³⁾.

ومن المعاصرين الذين اعتنوا عناية فائقة بهذا الكتاب ومن نحن بصده الدكتور و داد القاضي التي قامت بتحقيقه سنة 1984م على تسعة أجزاء، وقد ذكرت في مقدمة التحقيق نسخ المخطوطات التي حصلت عليها من بعض المكتبات العالمية، والتي اعتمدتها في تحقيق نصوص هذا الكتاب.

(1) الكيلاني، إبراهيم، رسائل أبي حيان التوحيدي، د.ط، دار طلاس، سوريا، د.ت، مصدر سابق، ص86.

(2) شلق، علي، أبو حيان التوحيدي والقرن الرابع الهجري، مصدر سابق، ص134.

(3) الشيخ، محمد عبد الغني، أبو حيان التوحيدي ورايه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، مصدر سابق، ج2، ص76 - 768.

الفصل الأول

أشكال التعبير النثري في كتاب البصائر والذخائر

لأبي حيان التوحيدي

دراسة موضوعية

أولاً: الأمثال.

ثانياً: الرسائل.

ثالثاً: الخطب.

رابعاً: التوقيعات.

خامساً: الوصايا.

الدراسة الموضوعية

شكلت هذه الدراسة الجزء الأكبر في الرسالة حيث أنها تناولت دراسة الأشكال النثرية في كتاب البصائر والذخائر موضوعياً، وركزت على الجوانب المهمة التي من شأنها إبراز قيمة المضمون النثري وشكله لكل نوع منها، كالنوع والمصدر والوظيفة والموضوع، وكل هذه العنوانات مفاتيح للدخول إلى مضامين، يظهر التنوع من خلالها، ومن ثم يبيّن الشكل النثري بصورة واضحة موضوعه أفكاره.

أولاً: الأمثال

يجدر - عند الحديث عن المثل - تناول تاريخ المثل ومفهومه، والتعريفات التي جاءت في وصف المثل من أقوال العلماء والنقاد في ذلك، فمن الأقوال التي جاءت بتاريخ المثل وأصله

ما ذكره المستشرق الألماني رودلف زلهام أن الأصل السامي العام لهذه الكلمة (في العبرية: مثل، وفي العبرية Masal، وفي الحبشة Mesel، وفي الأكادية Mesum) يتضمن حسب اشتقاقها - معنى المماثلة⁽¹⁾.

وقد وجد المثل بالطبع قبل أن يعرف بهذا الاسم، ويسمى به بزمان طويل، وللحاجة إلى التجريد - تلك الحاجة التي توجد لدى الشعوب البدائية - سمى قدامى الساميين "المثل" باسمه، تبعاً لسماته الجوهرية أصلاً: وهي سمات المقارنة التصويرية، ثم توسع هذا المفهوم بعد ذلك، ولا يفهم من اشتقاق المثل شيء أكثر من "التمثيل" ومعناه تشبيه شيء بشيء⁽²⁾.

وإن الأصل السامي العام لكلمة "مثل" يتوزع - حسب اشتقاقها - بين معنيين: معنى "المماثلة" ومعنى "العرض في صورة حسية" ويرى بعض المستشرقين أن هذه الكلمة في جذرها التاريخي هي من الكلمات المعربة عن اللغة الآرامية، ومهما يكن من أمر الأصل التاريخي هذا، فإن العرب قد اعتنوا بالأمثال عناية قل نظيرها، فقد أقحموها في كل ميادينهم تقريباً، فكان لكل ضرب من ضروب حياتهم مثل يلهج به⁽³⁾.

(1) زلهام، رودلف، الأمثال العربية القديمة، تحقيق: رمضان عبد التواب، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م، ص21.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص22.

(3) أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1988م، ص31.

أما التعريفات التي وردت في وصف المثل فهي كثيرة، لكنها لا تخلو من أن تصبّ في معنى واحد ألا وهو المماثلة والمشابهة، فضلاً عن أن الأمثال ناتجة عن التجارب التي مرّ بها العربي، لذلك نجدها لا تخلو من الحكمة.

قال أبو عبيد بن سلام (ت 224هـ): " الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد ضربها النبي ﷺ، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف " (1).

قال ابن السكيت (ت 244هـ): المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه، ومعنى ذلك اللفظ شبهوه بالمثل الذي يعمل عليه غيره (2).

وقد ذكر المرزوقي أن المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها تتسم بالقبول، أو تشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كلّ ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجّه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، ولذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها (3).

وجاء في كتاب تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي أن المثل: قول محكي سائر يقصد منه تشبيه حال الذي حُكي فيه بحال الذي قيل لأجله، وهي مرآة تري صور الأمم، وقد مضت، وعلى أخلاقها وقد انقضت، وهي ميزان يوزن به رقيّ الشعوب وانحطاطها، وسعادتها وشقاؤها وأدبها ولغتها (4).

والمثل قول محكم يدور على الألسنة، أو هو قول موجز يشبه مضربه بمورده، وتبقى ثابتة مدى الزمان، وإن خالفت النحو والصرف (5). وهو أيضاً كلمة موجزة قيلت في مناسبة ما، ثم تناقلتها ألسن الناس جيلاً بعد جيل (6). وقد مزج بعض القدماء في فهمهم للمثل بين المثل والقول السائر أو العبارة التقليدية، وهو اختلاط واضح في المؤلفات المبكرة المعنونة بالنواذر

(1) السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين بن أبي بكر، ت 911هـ، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج 1، ص 374.

(2) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، مصدر سابق، ج 1، ص 486.

(3) المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن، ت 421هـ، شرح الفصيح لثعلب، تحقيق: سليمان بن إبراهيم العايد، د. ط، ص 197، وانظر: زلهام، رودلف، الأمثال العربية القديمة، مصدر سابق، ص 25.

(4) فارس، أحمد، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ط 1، دار الأمان، بيروت، 1993م، ص 298.

(5) انظر: حامد، محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، ط 1، دار العلم والإيمان، دمشق، 2010م، ص 232.

(6) أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، مصدر سابق، ص 46.

خاصة، وهي في العادة ذات غاية لغوية تفسيرية، حيث نلاحظ فيه الخلط بين الأمثال والعبارات التقليدية، كما أن المثل يؤتى به لشرح ما فيه من لغةٍ وغريب⁽¹⁾.

والمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسلّة بذاتها تنقل عمّن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير⁽²⁾.

والمثل حكاية موجزة بسيطة رمزية، كتبت شعراً كما كتبت نثراً، وقد تكون نثراً دخلت الشعر، وهو ذو أهمية كبيرة بالنسبة إلى حياة العرب الاقتصادية والبشرية والاجتماعية والسياسية والقبلية، ولما كان العرب أهل بلاغة فإنهم أدّوه أداءً فنياً⁽³⁾ وقد نقل عن العرب الأقدمين في الجاهلية وصدر الإسلام كثير من الحكم والأمثال. وقد ذهبوا إلى أن هذه الأمثال تُنقل بالحكاية، أي أنها كما قال أبو هلال العسكري، تضرب على ما جاءت من العرب لا تُغيّر في صيغتها ... وقال جلال الدين السيوطي: "إن العرب كانت تجري الأمثال على ما جاءت ولا تجري بها الإعراب وإن كانت ملحونة"⁽⁴⁾.

أنواعها:

يمكن تقسيم الأمثال في كتاب البصائر والذخائر من حيث أنواعها إلى:

1- المثل الحكمي:

وهو المثل الذي يحمل في طياته معنى الحكمة، والأمثال كما قال أبو عبيد بن سلام (ت 224هـ): "هذا كتابُ الأمثال، وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام" فالأمثال هي الحكمة الناتجة عن التجربة⁽⁵⁾، ومن المأثورات التي تجري مجرى الحكمة والتي وردت في كتاب البصائر والذخائر، " المرء يعجز لا محاله " ⁽⁶⁾ ، أي لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز⁽⁷⁾.

-
- (1) داود، أماني سليمان، الأمثال العربية القديمة، ط1، دار الفارس، الأردن، 2009م، ص26.
 - (2) الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، د. ط، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص18.
 - (3) ألتونجي، محمد، المعجم المفصل في الأدب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ج2، ص758.
 - (4) المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1982م، ص86.
 - (5) زلهائم، رودلف، الأمثال العربية القديمة، مصدر سابق، ص23.
 - (6) التوحيد، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، ت 414هـ، تحقيق: وداد القاضي، ط5، دار صادر، بيروت، 2010م، ج2، ص71.
 - (7) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت 518)، مجمع الامثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد المجيد، د.ط، دار المعارف، بيروت، د.ت، ج2، ص309.

ومنها أيضاً: "إذا قلّ الأعوان كلّ اللسان"⁽¹⁾ و"لا تكن حلواً فتبلع ولا مرأ فتلفظ"⁽²⁾ و"الاستقصاء فرقة"⁽³⁾ و"الأيام عوج رواجع"⁽⁴⁾.

2- المثل المولّد:

يقول الدكتور إبراهيم السامرائي: لفظة مولّد توحى لنا بشيء جديد جاء في كلام العرب وخالف السائد المألوف، فكان موضع هجوم عنيف من جانب المحافظين، وأصحاب اللغة، لأن في التوليد خروجاً على القديم، وزخرفة الألفاظ عن معانيها، واستعمالها في معان جديدة، اكتسبت اللفظة قوة وقبولاً، ومنحتها ملاءمة لذوق العصر، والأمثال المولّدة من ألوان الأدب التي صنعتها المناسبات الطارئة، ونشأت بين الشعوب المستعربة وانتمت إلى بيئاتهم المختلفة وهي وليدة تمازج ثقافات متعددة"⁽⁵⁾.

ومن الأمثال التي وردت في كتابنا لهذا المعنى، و"اهتك ستور الشك بالسؤال"⁽⁶⁾، "ولا تطمع في كل ما تسمع"⁽⁷⁾.

3- المثل الواقعي:

وهو الذي يمثل الأحوال الاجتماعية والنفسية لإنسان ذلك العصر، وقد وردت على السنة شرائح متعددة كالأدباء ورجال الفكر، وولاة العمال، وعامة الناس، من الرجال والنساء. ومن ثم، فهي أمثال حقيقية وليست أمثالا فرضية، كما الحال في طائفة من الأمثال الجاهلية⁽⁸⁾ والأدب الواقعي يركز على مفهوم الالتزام الناجم عن صدق التجربة، والقدرة على الإقناع، فالأمثال بطبيعة تكوينها، هي نتاج التجربة الصادقة، بسبب قدرة المثل الواحد على التعبير عن مواقف عديدة في وقت واحد"⁽⁹⁾.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص164.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص222، وانظر: الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، ت 255هـ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط1، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 2010م، ج3، ص169.

(3) المصدر نفسه، ج7، ص241.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(5) انظر: السامرائي، إبراهيم، في الأمثال العربية، د.ط، مطبعة حكومة الكويت، د.ت، ص137-138.

(6) المصدر نفسه، ج6، ص165.

(7) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(8) أبو زيد، سامي يوسف، الأدب العباسي، ط1، دار المسيرة، عمان، 2010م، ص179.

(9) انظر: أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، مصدر سابق، ص66.

والمثل الواقعي قد يأتي مبنياً على حدثٍ أو قصة وقعت فعلاً عند العرب، ولم تؤخذ من غيرهم، ومنها "تجوع الحرة ولا تأكل بنديبها"⁽¹⁾، وأول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدي وكان حليفاً لعقمة بن خصفة الطائي، فزاره وخطب ابنته الزباء، وكانت من أجمل أهل دهرها، إلا أنها فضلت الفتى الوضاح عن الكهل الراحل المتاح، لكن أمها غلبتها في الحوار عن المفاضلة، فتزوجها الحارث ورحل بها إلى قومه، فرأها شباب بني أسد، فتنفست الصعداء وجاشت بالبكاء، فقال لها ما يبكيك؟ قالت مالي والشيوخ: فقال لها: تكلتك أمك: تجوع الحرة ولا تأكل بنديبها⁽²⁾. وهذا ما نجده في غالبية موارد الأمثال الجاهلية التي نتجت عن تلك الأحداث والقصص الواقعية، ومن ثمّ يمكن القول أن كل مورد مثل ناتج من الواقع على وجه العموم، فإن لم يكن حقيقياً فهو تصور ناتج عنه.

4- الأمثال العامية أو الشعبية:

وهي الأمثال التي تقال باللهجات المحلية⁽³⁾، وهذه الأمثال جاءت على ألسنة العامة من الناس، وقد أورد التوحيدي في هذا الكتاب عدداً غير قليل من هذه الأمثال، ومنها "الخنفساء في عين أمها مليحة"⁽⁴⁾ و"واحد يعرف وآخر يطوف له"⁽⁵⁾ و"من يأكل بيدين يختنق"⁽⁶⁾ و"كف إنما وجهك خف"⁽⁷⁾ (ويقول أبو حيّان التوحيدي لقد ضربت من أمثال العامة أشياء تتصل بأعراض صحيحة على سوء التأليف وخبث اللفظ وفيها فوائد عجيبة، فاعرف الخبيث والطيب واختر أنفعها لك في موضعه وأجداهما عليك عند استعماله فلم يَنْبَثْ هذا كله في العالم إلا ليعرف ويميز وليكون بعضه باعثاً على بعض وناهيّاً عن بعض ، وباختلاف الأشياء تختلف الظنون وتنقسم الأفكار في طلب الحق وتوخي الصواب، وليس الحق شخصاً في محل يُطوى إليه، فلا تصرف وجهك عن اللفظة السخيفة والكلمة الضعيفة، فإن المعنى الذي فيها فوق كراهتك، وليس العالمُ تابعاً لرأيك، ومحمولاً على استحسانك واستقباحك، بل يجلّ عن مقام فكرك، ويعلو عن غايات فهمك، فإنك ترى لنفسك محلاً ليست به، فنقول: هذا حسن وهذا قبيح، دون أن نقف على حقائق ذلك الحسن والقبح بعقل ما شأنه الهوى⁽⁸⁾). أراد

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 1، ص 239.

(2) علي، كمال محمد، حكايات الأمثال والحكم العربية، مصدر سابق، ص 82.

(3) أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، مصدر سابق، ص 44.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 9، ص 55.

(5) المصدر نفسه، ج 4، ص 86.

(6) المصدر نفسه، ج 9، ص 56.

(7) المصدر نفسه، ج 9، ص 57.

(8) المصدر نفسه، ج 9، ص 58.

أبو حيان التوحيدي في كلامه أن يبين أن أمثال العامة فيها من اللفظ الخبيث وسوء التأليف، لكنّها في الوقت نفسه لا تخلو من المعنى الطيب والفائدة العجيبة، وأن الناس متفاوتون في مدى استحسانهم واستقبالهم. فللقارئ أن يختار ما هو أنفع.

مصادر الأمثال:

إن أكثر الأمثال التي وردت في كتاب البصائر والذخائر لم تُنسب إلى قائلها، بل اكتفى أبو حيان التوحيدي بأن يجعل القائل مجهولاً بقوله: (يُقال في الأمثال) أو (العرب تقول في أمثالها) أو (العرب تقول) أو (وفي المثل) أو (من كلام العرب) ثم يذكر المثل من غير قائله، لهذا يصعب على الباحث الوصول إلى مصادر جميع الأمثال حتى بعد الرجوع إلى كتب الأمثال، بسبب تعدد الروايات حول الحادثة أو القصة التي قام عليها المثل، ومن المعلوم أن المثل قد يعرف مصدره عن طريق قصة المثل، أو الاسم الصريح للقائل، أو من خلال بعض الحوادث والإشارات التي يمكن أن تحدد مصدر المثل ونسبته إلى العصر الذي قيل فيه، ومع هذا سنحاول الوصول إلى هذه المصادر، وتحديد الجهة التي صدرت عنها، والعصر الذي قيلت فيه بالاعتماد على ما نسبته المحقق لبعض الأمثال في حاشية الكتاب، أو الرجوع إلى مصادر الأمثال القديمة، خاصة وأن بعض الأمثال التي وردت في البصائر والذخائر أمثال مشهورة ومتداولة في كثير من كتب الأمثال، ومن خلالها يمكن الاهتداء إلى العصر الذي قيلت فيه.

وهذا ما أشار إليه شوقي ضيف بقوله: "أصبح من الصعب تمييز الأمثال الجاهلية من الإسلامية في كثير من الأحيان، ومع ذلك فقد يورد أصحاب كتب الأمثال مع ما يرونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها. وهي تتخذ عندهم طريقتين: الأولى أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره، أو أن يُساق هو أثناء قصة جاهلية، أما الطريق الثاني، فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه⁽¹⁾.

أولاً: المصادر الجاهلية:

من الأمثال الجاهلية التي وردت في كتاب البصائر والذخائر، وقد دلت عليها الأسماء أو القصص والحوادث، المثل القائل "حافظ على الصديق ولو في الحريق"⁽²⁾، "وقد يبلغ الخضم بالقضم"⁽³⁾ وهذان المثلان لأكثم بن صيفي وهو من البلغاء الجاهليين ساقهما السيوطي

(1) انظر: ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، د.ط، دار المعارف، مصر، د.ت، ص405.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص166.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص56.

في المزهر⁽¹⁾ ومنها أيضا قولهم "ربّ ساع لقاعد" وقال عنه الميداني في مجمع الأمثال هو للنابعة⁽²⁾ ومن الأمثال الجاهلية أيضا والتي دلت عليها قصصها "إياك أعني واسمعي يا جارة"⁽³⁾ وأول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري عندما خرج يريد النعمان، فمر ببعض أحياء طي، فسأل عن سيد القوم، فدلوه على حارثة بن لأم، فقصده فلم يجده حاضراً، فقالت له أخته: أنزل على الرّحّب والسعة، فنزل فأكرمتها، ثم خرجت إلى خبائها لشغلها، فرآها أجمل أهل زمانها وأعلمهم، وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها، فوقع في نفسه منها شيء، فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ولم يدر ما يوافقها فجلس بفناء الخباء وهي تسمع كلامه، وجعل ينشد:

يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزارة
أصبح يهوى حُرّة معطارة إياك أعني واسمعي يا جارة

تقتله بعينها السّحارة⁽⁴⁾

ثانياً: المصادر الإسلامية:

من الممكن أن نحدد المثل الإسلامي من خلال التعرف إلى الفكرة التي يسندُ عليها المثل، هل هي إسلامية ظهرت بظهور الإسلام ثم انتقلت إلى العقلية العربية؟ أو أن المثل مرتبط بحادثة تاريخية إسلامية، أو أن المثل منسوب إلى قائله⁽⁵⁾، وبذلك يمكن معرفة المثل الإسلامي على أساس الضوابط الثلاثة، وهي التي نتوقف عليها معرفة مصادر الأمثال الجاهلية كانت أم إسلامية، فالأفكار، والحوادث التاريخية، والنسبة إلى القائل كفيلة ببرد المثل إلى مصدره التاريخي، ومن هنا نستطيع القول إن كتاب البصائر والذخائر وردت فيه أمثال قيلت في العصر الإسلامي، ابتداءً بالصحابة حتى بدايات العصر العباسي الذي خرجت أمثاله من الاحتجاج اللغوي.

1- الصحابة رضي الله عنهم:

وردت أمثال من أقوال الصحابة في كتاب البصائر والذخائر، فقد روى الميداني في مجمع الأمثال أن أبا موسى الأشعري قال في بعض القبائل: "كان كراعاً فصار ذراعاً"⁽⁶⁾،

(1) السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين بن أبي بكر، ت 911هـ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، مصدر سابق، ج 1، ص 389.

(2) انظر: الشيباني، أبو المحاسن محمد بن علي العبدري، ت 837هـ، تمثال الأمثال، تحقيق: أسعد زيبان، د.ط، دار المسيرة، بيروت، م 2، ص 439.

(3) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 6، ص 108.

(4) انظر: الواحد، علي بن أحمد بن محمد، ت 468هـ، الوسيط في الأمثال، تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن، د.ط، دار الكتب الثقافية، الكويت، 1975م، ص 52-53.

(5) انظر: السامرائي، إبراهيم، في الأمثال العربية، مصدر سابق، ص 47.

(6) انظر: الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، ت 518هـ، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محبي الدين عبد الحميد، د.ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج 2، ص 131، وانظر: البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 2، ص 98.

وذكر أبو حيان التوحيدي مثلاً نسبته إلى الصحابي عمرو بن العاص، وهو يوتخ رجلاً من جهينة فيقول: "الأطلاف لا ترى مع الأخفاف"⁽¹⁾.

2- عصر بني أمية:

وهناك مثل ورد في كتابنا يعود إلى العصر الأموي، وهو لعبيد الله بن عتبة المسعودي ت 98هـ، وهو أحد الفقهاء السبعة في المدينة، وهو معلم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو الذي قيل له كيف تقول الشعر مع النسك والفقه؟ فقال "إن المصدور لا يملك أن ينفث" ويروى لا بد للمصدور أن ينفث"⁽²⁾.

ثالثاً: عصر المولدين:

لقد أورد التوحيدي عدداً من الأمثال المولدة التي قيلت على ألسن المولدين وذلك بعد عصر الاحتجاج، وقد عدّها الميداني في مجمع الأمثال من هذا النوع، فمنها قولهم "ذهبت دماؤهم درج الرياح"⁽³⁾ و"يضرب للدم إذا كان هدرا لا طالب له"⁽⁴⁾ و"زادك الله رعالة كلما ازددت مثالة"⁽⁵⁾ والرعالة: الحماقة، والمثالة: مصدر مثل الرجل إذا كان أفضل من غيره، ويضرب لمن يزداد حمقه إذا ازداد ماله⁽⁶⁾، وقولهم أيضاً "عاطٍ بغير أنواط"⁽⁷⁾ العطو: التناول، والأنواط جمع نوط وهو كل شيء معلق، يقول: هو يتناول وليس هناك معاليق: يضرب لمن يدعي ما ليس يملك⁽⁸⁾ وقد ظهرت أمثال أخرى في العصر العباسي تسمى بأمثال العامة لأنها قيلت على ألسنة العامة من الناس، ومن ذلك قولهم "من صير نفسه نخالة بحثها الدجاج"⁽⁹⁾ ومن أمثالهم في هذا المجال أيضاً قولهم "من يأكل ولا يحسب يخرب بيته ولا يعلم"⁽¹⁰⁾ و"نفس العجوز في القبة"⁽¹¹⁾.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 1، ص 233.

(2) انظر: الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، ت 255هـ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ص 246-247، وانظر: البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 2، ص 115.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 6، ص 164.

(4) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج 1، ص 279.

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 6، ص 164.

(6) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج 1، ص 322.

(7) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 4، ص 125.

(8) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج 2، ص 24.

(9) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 9، ص 56.

(10) المصدر نفسه، ج 9، ص 56.

(11) المصدر نفسه، ج 9، ص 55.

وظائف الأمثال:

يجدُ الدارسُ للأمثال في كتاب البصائر والذخائر أن أبا حيان التوحيدي اختار أمثالا يمكن توظيفها في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية، كالجانب الفكري والفني والتعليمي لما اشتملت عليه من وعظٍ، وإرشادٍ وخير دليل على وظيفتها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِثْلَ الْأَمْثَلِ

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِثْلَ الْأَمْثَلِ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾^(٢).

فمن مفهوم الآيتين الكريمتين نستطيع القول إن الأمثال لها قيمة وظيفية كبيرة فهي تقرب لصورة الواقع الذي يعيشه الإنسان في كل زمان ومكان، وليست أدبا للتسلية وتحريكا للعاطفة فحسب.

1- وظيفة تربوية تعليمية:

شكلت الأمثال في هذا الكتاب أخلاقيات وسلوكات تربوية وتعليمية تتعلق بالجانب الاجتماعي، حيث إنها تحملُ قيماً وأعرافاً عرفها المجتمع العربي في الزمن السالف، وجاءت للعبارة والعظة، والحث على فعل الخير واجتناب الشر والتزام الوسطية في الأمور، إضافة إلى بعض السلوكيات التي من شأنها أن ترسم للإنسان الطريق الواضحة في تدبير شؤون حياته، لأن الأمثال ما قيلت إلا عن تجربة واضحة، فهي تعلم الإنسان وتدله على ما ينفعه، وتحذره مما يضره.

ومن الأمثال التي وردت في بعض الأخلاقيات التربوية المحمودة كالحث على التستر على الآخرين وحفظ كرامتهم قولهم "استر عورة أخيك ما يعلم فيك"^(٣) و"حافظ على الصديق ولو في الحريق"^(٤)، ومنها ما جاء في مدح بعض الصفات التي يتحلّى بها الإنسان كالكرم في قولهم "إن الجواد عينه فراره"^(٥) و"الحر يعطي والعبد يألم" فهو توضيح للفرق بين سخاء الحر

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

(٢) سورة الحشر: الآية (٢١).

(٣) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٦٦.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٨.

مقارنة بالعبد الذي يشق عليه ذلك⁽¹⁾، وكذلك قولهم "عند الصليان الرزْمَة" أي إلى الكريم تحن⁽²⁾

ووردت بعض الأمثال لتعليم الإنسان توطيد نفسه على تحمل نوائب الزمان والاستعداد لها قبل حلولها، وذلك بالمثل "دمّت لجنبك قبل النوم مضطجعا"⁽³⁾، "وعند النطاح يُغلب الكبشُ الأجم"⁽⁴⁾.

وجاءت بعض الأمثال لشرح قضايا تتعلق بالصفات المشتركة بين الإنسان وبعض الحيوانات والنباتات والجمادات، وهي لا تخلو من أن تكون وظيفة تربوية تعليمية لمعرفة صفات بعض الأشياء، كقولهم "أهدى من القطا"⁽⁵⁾ و"أمرّ من العلقم" و"أقسى من الحجر"⁽⁶⁾ و"أعرى من مغزل"⁽⁷⁾.

2- وظيفة استدلالية توجيهية:

إن الأمثال العربية نقلت حكمة العرب التي وضعوا فيها خلاصة معرفتهم وتجاربهم في الحياة، بل لعلها تعني فلسفتهم في الحياة، وهي تعبر عن بعض الحاجات التي قد لا يُعبّر عنها صراحة تعبيراً يجمع جمال الأسلوب وحسن التخلّص⁽⁸⁾. لكن الهدف من استعمال الأمثال لأخذ العبرة لا يزال قائماً على أصوله، حيث إنها تمثل استدلالات واضحة كثير من القيم الإيجابية التي كان العربي يتحلّى بها، إضافة إلى قيامها بتوضيح المثالب الخلقية التي كان العربي ينفر منها وينقر غيره، وهناك فائدة للأمثال لحظها ابن المقفع الذي يقول: "إذا جُعِلَ الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وأنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث، وهي وشي من الكلام، وبها كانت العرب تبلغ حاجاتها كناية من غير تصريح"⁽⁹⁾. ويقول ابن الأثير: "إن العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجز منها ولا أشدّ

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص86.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص57.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص125.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(7) المصدر نفسه، ج2، ص204.

(8) انظر: أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربي والعصر الجاهلي، مصدر سابق، ص42.

(9) انظر: عبيد، محمود عبد الملك الأمثال العربية في العصر الجاهلي، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد: الأردن، 1983، ص22.

اختصاراً⁽¹⁾. وقد وردت أمثال في البصائر والذخائر بقصد التوجيه والإرشاد والاستدلال بها على كيفية التعامل مع تجارب الحياة كقولهم "شمر إذا جدّ بك السير"⁽²⁾ و"دع الوعيد يذهب بالبيد"⁽³⁾ وكذلك من الأمثال التي يُستدل بها على حرص الإنسان على ماله في قول العرب "كل مبدول مملول" أي كل ما منعه الإنسان كان أحرص عليه⁽⁴⁾. ومنها ما جاء للدلالة على أن مكان الواحد لا يصلح للاثنتين في قولهم "لا يجتمع سيفان في غمد"⁽⁵⁾ و"لا يجتمع فحلان في شول"⁽⁶⁾.

وهناك أمثلة أخرى دعت إلى الأخذ والالتزام بالوسطية في الأشياء وعدم الغلو بها كقولهم "لا تكن حلوا فتبلع ولا مرّاً فتلفظ"⁽⁷⁾ وقال الجاحظ عن هذا المثل: والمثل السائر، والصواب المستعمل: "لا تكن حلوا فتزدد، ولا مرّاً فتلفظ"⁽⁸⁾ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه متحدثاً عن الاعتدال بين التفریط والإفراط لإصلاح أمر الدين: إن هذا الأمر لا يصلحه إلا لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف"⁽⁹⁾.

موضوعات الأمثال:

تضمنت الأمثال في كتاب البصائر والذخائر موضوعات عديدة، فقد شملت الموضوعات الخلقية، والاجتماعية، والخلقية، والاقتصادية.

1- الموضوعات الخلقية:

لقد تناولت هذه الموضوعات جانباً من الصفات الإيجابية والسلبية القائمتين على المدح والذم، إضافة إلى بعض الأخلاقيات الإنسانية التي لها وجه شبه بطباع بعض الحيوانات، وصفات بعض النباتات والجمادات، كالحذر، والحمق، والهداية، والقساوة، والمرارة، والعنق أي القَدَم.

(1) ابن الأثير، ضياء الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، ت 637هـ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: الحوفي، أحمد، طبابه، بدوي، ط2، دار الرفاعي، الرياض، 1993م، مصدر سابق، ج1، ص75.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص166.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص124.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص20.

(7) المصدر نفسه، ج5، ص224.

(8) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج3، ص169.

(9) المصدر نفسه، ج3، ص169.

ومما ورد حول هذا الموضوع من الأمثال، قولهم: "أحذر من العقق"⁽¹⁾ و"أحمق من الجمل"⁽²⁾ و"أحمق من رُبّع"⁽³⁾، فقالوا: وما حمق الربّع؟ والله إنه ليتجنّب العدو، ويبّيع أمّه في المرعى، ويرأوح بين الأطباء، ويعلم أن حنينها دعاء، فأين حمقه؟!⁽⁴⁾ و"أهدى من القطا"⁽⁵⁾ و"أقسى من الحجر"⁽⁶⁾ ومن أمثال العامة: "اعتق من الحنطة" أمرٌ من العلقم"⁽⁷⁾.

2- الموضوعات الاجتماعية:

تضمنت هذه الأمثال موضوعات ذات علاقة بالمجتمع وأفراده، فمنها ما روى الرئيس ابن العميد في أمثال العرب أنها حثت على المواساة بين الناس في الشيء القليل، فمنها "أطعم أخاك عققن الضب" أي قانصته، وقيل كشيّته في بطنه، ويضرب هذا المثل عند حثك الرجل على المواساة⁽⁸⁾ ومنها "أطعم أخاك من جلدة البعير"⁽⁹⁾ و"أطعم أخاك من كلية الأرنب"⁽¹⁰⁾. ومن الموضوعات الاجتماعية الدعوة إلى التحلي بالقيم الإنسانية الفاضلة التي من شأنها أن تجعل المجتمع أكثر تماسكاً كقولهم "استر عورة أخيك ما يعلم فيك"⁽¹¹⁾ و"حافظ على الصديق ولو في الحريق"⁽¹²⁾ وفي الحث على القناعة "ارض من العشب بالخصوبة"⁽¹³⁾.

وقد تحدثت بعض الأمثال عن جوانب اجتماعية أخرى كالنتاحر والعداوات بين الأشخاص، كقولهم: "بينهم داء الضرائر"⁽¹⁴⁾، وقد ورد في أمثال العامة في الحث على اتخاذ الإنسان قدوة حسنة له في قولهم "من كان دليله اليوم كان مأواه الخراب"⁽¹⁵⁾، وهناك أمثال

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص159.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص56. العقق: طائر أبلق بسواد وبياض، يشبه صوته العين والقاف، انظر: الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، ت 817هـ، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الدراسة، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص70. رُبّع: وهو ما ولد من الإبل في الربيع، انظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، ت 711هـ، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.

(4) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج1، ص225.

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص159.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(7) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(8) المصدر نفسه، ج6، ص162.

(9) المصدر نفسه، ج6، ص162.

(10) المصدر نفسه، ج6، ص162.

(11) المصدر نفسه، ج6، ص165.

(12) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(13) المصدر نفسه، ج6، ص163.

(14) المصدر نفسه، ج6، ص164.

(15) المصدر نفسه، ج6، ص56.

ضُربت للتحذير من بعض السلوكيات الاجتماعية السيئة "لا تتفع حيلة مع غيلة"⁽¹⁾ قال عنه الميداني أنه يضرب للذي تأتمنه وهو يغشك ويغتالك"⁽²⁾. وفي الإفساد وعدم الإصلاح ذكر "يوهي الأديم ولا يرقعه"⁽³⁾.

3- الموضوعات الاقتصادية:

لم يرد في كتابنا إلا القليل من الأمثال التي تتعلق بالجانب المادي الاقتصادي فمنها قولهم إذا أريد الاقتصاد بالشيء "بين المُمخّة والعجفاء"⁽⁴⁾، ويقال: شاة مُمخّة إذا بدا في عظامها المخ⁽⁵⁾ وأخرى ما يضرب للحريص في جمع الشيء، قولهم: "حتى متى تكرع وأنت لا تتقع"⁽⁶⁾، ويقال: كرع الماء، إذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء، ونقع: معناه روى وأروى أيضا⁽⁷⁾، ومنها في أمثال العامة "ما أطيب العرس لولا النفقة"⁽⁸⁾.

4- موضوعات الصفات المعنوية:

وردت أمثال في البصائر والذخائر تعرضت لبعض الصفات الجسدية المحمودة، وهي: "أزهي من غراب"⁽⁹⁾ لأنه إذا مشى يختال وينظر إلى نفسه⁽¹⁰⁾ و"ألطف من الروح"⁽¹¹⁾. و"أضعف من كبد العشاق"⁽¹²⁾.

(1) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(2) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج2، ص235.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص162.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص124.

(5) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج1، ص93.

(6) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص165.

(7) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج1، ص209.

(8) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص56.

(9) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(10) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج1، ص327.

(11) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص85.

(12) المصدر نفسه، ج4، ص85.

ثانياً: الرسائل

أنواعها:

1- الرسائل السياسية والديوانية (الرسمية):

وتشمل هذه الرسائل كل ما يتعلق بشؤون الدولة، كالكتب التي تقرأ على العامة من بيعة أو منشور، أو أخذ بسياسة، أو ذكر لفتح، أو تفصيل انتصار جيش، أو تحذير من فتنة، أو حث على الطاعة والولاء، أو تهنئة خليفة بحج أو ظفر، أو غير ذلك مما يمسّ أمور الدولة وأحوالها من قريب أو بعيد، وتكتب في غاية الإسهاب من أجل الإيضاح وإفهام العامة من الناس، وتنبيهاً في نفوسهم، وتقخيماً لشأن الخليفة على عادة الفرس في تقديس رؤسائهم، وتعظيماً لنعم الله عليه وعلى أهل بيته⁽¹⁾، والرسائل الديوانية هي التي تهتم بشؤون الدولة الداخلية والخارجية، ويكون الديوان مصدراً ومورداً لها، وأنها بدأت برسائل الدعوة إلى الإسلام، والأحلاف التي كانت بين النبي محمد ﷺ وبين المشركين⁽²⁾ وكذلك الرسائل التي صدرت من ديوان الخليفة إلى الولاة وقواد الجيوش، وإلى العمال وغيرهم.

ولعلنا نبدأ برسالة الرسول محمد ﷺ إلى بني أسد بن خزيمة ومن تألف إليهم من أحياء مُضر، وهي الرسالة الوحيدة التي أوردتها أبو حيان في كتابه البصائر والذخائر للرسول محمد ﷺ والتي قال فيها "إن لكم حماكم ومرعاكم، ولكم مفيض السما حيث انتهى وصديع الأرض حيث ارتوى، ولكم مهيل الرمال وما حازت وتلاع الحزن وما جاورت"⁽³⁾.

وتعدّ هذه الرسالة من القسم الأول من رسائل الرسول محمد ﷺ، والتي صنّفها الدكتور أنيس مقدسي إلى ثلاثة أصناف، وعدّ الأولى منها منذ الهجرة إلى واقعة الخندق سنة 5هـ، وهي من الرسائل السياسية لأن مركز النبي ﷺ في السنين الأولى من الهجرة كان شاقاً وكان جلّ ما يصبوا إليه محالفة القبائل ليستعين بهم على إضعاف قوة قريش⁽⁴⁾ وهي من الرسائل القصيرة التي تدعو إلى مهادنة غير المسلمين أو الارتباط معهم بعهود الدفاع والمناصرة، وهي بلا شك من أقدم ما كتب الرسول محمد ﷺ⁽⁵⁾. ومن هنا يمكن القول بأن

(1) الغول، فائز علي، والكيالي، عبد الرحمن، القريب في تاريخ الأدب، ط خاصة، مكتبة الاستقلال، عمان، 1959م، ص48.

(2) انظر: حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ط1، المطبعة الفنية الحديثة، مصر، 1965م، ص50.

(3) انظر: التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج1، ص217-218.

(4) انظر: المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، مصدر سابق، ص24.

(5) انظر: المصدر نفسه، ص25.

رسائل الرسول محمد ﷺ تعدّ من الرسائل السياسية الرسمية كونها، تهتم بشؤون الدولة الإسلامية التي كانت حديثة عهد وترسم سياساتها، وإن لم تكن لفظة الديوان معروفة في زمانه، لكنها عالجت مسألة عامة بعيدة عن العاطفة والخيال، وأنها لم تكتب إلا لنصرة الدين الإسلامي الحنيف والحث على دخول الإسلام، وطاعة الله عزّ وجلّ ونصرة الحق، وبقيت الرسائل الديوانية تلعب دوراً هاماً في الساحة الإسلامية لتعالج القضايا السياسية وتواكب الأحداث التي مرّ بها المجتمع الإسلامي من اضطرابات داخلية وخارجية، والأخذ بمقتضيات الأمور التي يتطلبها الواقع.

ومن هذه الرسائل رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية يدعوهُ إلى التزام الحق واتباع العدل، وأن الحق قائم إلى يوم الحق، فيقول فيها: "إلزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق" (1).

ومن رسائله السياسية أيضاً رسالته إلى معاوية يحثه فيها على إقامة العدل والمساواة بين الناس بالقول والفعل، وإرجاع الحقوق إلى أهلها، وعدم القضاء في ساعة الغضب حفاظاً على سلامة الدين ونقاء الضمير.

يقول فيها: "إلزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيها بأقصى حظك: إذا تقدّم إليك خصمان فعليك بالبيئة العادلة أو اليمين القاطعة، وأدن الضعيف، حتى يشتدّ قلبه وينبسط لسانه، وتعهّد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقّه، ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقّه من لم يرفق به وآس بينهم في لفظك وطرفك، وعليك بالصلح ما لم يستتب لك فصل القضاء، وإياك والقضاء بين اثنين وأنت غضبان" (2).

وبقيت الرسائل الديوانية قائمة على أصولها إلى العصر الأموي الذي اشتدّ فيه الصراع السياسي على السلطة وكثرت فيه الفتن والحروب وزادت النزاعات الداخلية من أجل سدة الحكم، فحينها أخذت الرسائل الديوانية حظّها الأكبر لتلعب دوراً سياسياً وتوجيهياً من خلال تعاملها مع الأحداث، ومن أشهر رسائل هذا العصر التي عُيّنت بهذا الأمر رسائل الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيها: "جنّبي دماء آل طالب، فإنّي رأيت آل حرب لما قتلوا حسيناً نزع الله منهم الملك" (3) ويقول له في رسالة أخرى

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص138.

(2) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج7، ص157-158، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص91-92.

(3) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج5، ص214.

"أرهَبُ أهل الخيانة وأرغب أهل الأمانة، فإن البريء إذا لم يأمن العقوبة وخاف مثلما يؤتى إلى أهل الخيانة، طأطأ ركضاً في السرقة"⁽¹⁾.

وقد تحدّث حنا الفاخوري عن قيمة هذه الرسائل من عهد الرسول ﷺ انتهاءً بالعهد الأموي، فأثنى على عبقرية العرب السياسية والإدارية والحربية وما فيها من حكمة ودراية وروح دينية وإنسانية، وإشاعة العدل، وفيها حزم وحسن إدارة مما شهد لهم بالتفوق الحقيقي والحماسة التي تواجه الصعاب، وتحدث عن أهمية ديوان الرسائل في العهد واعتبرها أبحاثاً مختلفة في السياسة والكتابة وإظهار التألق في الرسائل من حيث الزخرفة وحسن الأداء والموسيقى الصوتية⁽²⁾.

وخلاصة القول إن الغالب على الرسائل الديوانية طابعها السياسي فهي توجيهية لإرادة وإدارة الدولة وشؤونها السياسية والقضائية والمالية، وكيفية الأخذ بزمام الأمور على إقامة الدولة من خلال التوجيه والإرشاد إلى من يهمهم الأمر.

2- الرسائل الإخوانية:

وهي في كل ما يكون بين الإخوان والأصدقاء من المناسبات: كالتوديع، والاستزادة، والشكر، والإهداء، وتحسين الصفح بعد الجفاء، أو الاعتذار، أو الاستعطاف، أو التعزية، أو التهنية بتزويج أو مولود أو حج، أو أوبة من سفر⁽³⁾، وقد عرفها الدكتور طه حسين بأنها الرسائل التي تصوّر عواطف الأفراد ومشاعرهم من رغبة ورهبةٍ ومن مديح وهجاءٍ وعتاب⁽⁴⁾.

ولقد أورد التوحيدي عدداً غير قليل من هذه الرسائل في كتابه البصائر والذخائر وبموضوعات مختلفة، فمنها الرسالة التي رواها الأصمعي عن بعض التابعين من كتاب كلثوم بن عمر العتابي إلى رجل لطلب حاجة، فيقول فيها: "أطال الله بقاءك، وجعله يمتدّ بك إلى رضوانه والجنة. أما بعد، فإنك كنت عندنا روضةً من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من التّجعة إجلالاً لزهرتها، وشفقةً على خضرتها، وادّخاراً لثمرتها حتى مرّت بنا في سفرتنا هذه سنة كانت من سني يوسف، اشتدّ علينا كلبها واخلفت غيومها، وكذبنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، وانتجعتك وأنا بانتجاعي إياك شديد

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص94.

(2) انظر: الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، د.ط، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص374-375.

(3) الغول، فائز علي، والكيالي، عبد الرحمن، القريب في تاريخ الأدب، مصدر سابق، ص49.

(4) ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ط6، دار المعارف، مصر، د.ت، ص491.

الشفقة عليك، مع علمي بأنك نعم موضع الزاد، وأنتك تغطي أعين الحساد، والله يعلم أنني لا اعتدّ بك إلا في حومة الأهل، واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل، ولم يحضره الكثير، لم يعرف جوده، ولم تعلُ همته⁽¹⁾.

ومن الإخوانيات أيضاً ما كتبه مويس بن عمران إلى الجاحظ يدعوه لزيارته لأكل طعامه، فيقول فيها: "عندي قدران طبختهما بيديّ، يحكيان المسك الأذفر، فإن رأيت أن تصير إليّ متفضلاً فعلت"⁽²⁾ فكتب إليه الجاحظ رداً معتذراً فيه عن استجابة الدعوة في وقتها لمرضه طالباً منه بعض الوقت، فيقول له: "مجلسك المجلس الذي يمنع المصير من التوبة، وينقص عزمة الأواّه الحليم، وأنا علة من قرني إلى قدمي من حملي على نفسي ما ليس من عادتها، فهب لي نفسي هذا الأسبوع، ثم أنا بين يديك تقتادني حيث شئت، فعلت إن شاء الله"⁽³⁾، حيث تشفّ رسالة مويس بن عمران إلى الجاحظ عن بعض ملامح المأدبة التي كان أعدها لصديقه بنفسه، وهو يكتفي من هذه الملامح بالإشارة إلى الأوعية، وعدم الالتفاف إلى ما في داخلها من ضروب الطعام، ولكنه مع ذلك يشير إلى طيب ما اشتملت عليه هذه الأوعية من الطعام، وهو يجعل هذا الطيب ممثلاً للطيب الحقيقي الفائح⁽⁴⁾، وقد كتب رجلٌ إلى أخ له يعذله على غلبة الهوى عليه فقال: "من لم يكن طبعه الاقتدار على نفسه بحسن سياستها، والانتصاف من هواها، منعه الحزم قياده، وجاذبه الفهم خطامه، وحرمه الدهر حسن الذكر، فأجابه المعذول: ليس كل من شاء انتصف من هواه، وقهر غضبه برضاه"⁽⁵⁾.

لقد أطلق محمد نبيه حجاب على هذا النوع من الرسائل، الخاصة أو الشخصية والتي لا تتعلق بشؤون الدولة العامة، مؤثراً هذه التسمية، لأن الكثير من الرسائل الإخوانية تخلو من صفة المودة والإخاء وقد تفيض بالتهكم والتجريح⁽⁶⁾، وقد أورد التوحيدي بعضاً من هذه الرسائل التي يمكن أن تخرج عن التسمية الإخوانية بعض الشيء لما فيها من أسلوب تهكم وتوبيخ.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج5، ص67-68.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص123.

(3) انظر: المصدر نفسه، ج9، ص123.

(4) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، دار الفكر، عمّان، 1999م، ص277.

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص242.

(6) انظر: حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مصدر سابق، ص56.

فمن هذه الرسائل رسالة بعض الكُتّاب إلى صديق له تأخر عنه كتابه: "إن كنت لا تحسن أن تكتب فهذه زمانة، وإن كنت تكتب ولا تكتب إخوانك فهذا كسل، وإن كان ليس لك دواة وقرطاس فهذا سوء تدبير، وإن اعتذرت بعدما كتبتُ إليك، فهذه وقاحة"⁽¹⁾.

ومنها أيضاً رسالة ابن المعتز إلى رجل يذمه: "ذكرت حاجة أبي فلان المكتبي ليعرف لا لينكر، فلا وصلها الله بالنجاح، ولا يسرّ بابها للانفتاح، وذكرت عذراً أفصح عن نفسك، فوالله ما يُفصح عنها لكّنه يصح عليها، وأنا والله أصونك عنه، وأنصح لك فيه، فإنه خبيث النية، مثقف للمعائب، مقلب للسانه بالملق، يتأبس بالتخلق وجه الخلق، موجود عند النعمة مفقود عند الشدة، قد أنس بالمسألة، وضري بالردّ، فلا تعق عقلك باختياره، ولا توحش النعمة بإذلالها به، والسلام"⁽²⁾.

وجملة القول إن الرسائل الإخوانية الخالصة التي لا وعظ فيها بدأت خالصة بسيطة، ليس فيها شيء من الفن، واستمرت كذلك مديدة في العهد الأموي، بخلاف الرسائل السياسية التي سارت في طريق الفن منذ أواخر صدر الإسلام وأوائل العهد الأموي⁽³⁾.

3- الرسائل الوعظية:

ظهرت هذه الرسائل إلى جانب الرسائل المبكرة من ديوانية وإخوانية حيث أدّت دوراً مهماً في حياة الناس الاجتماعية وهي الرسائل الوعظية الدينية، حيث يعتمد فيها على الأسلوب السهل الذي يخاطب الوجدان، ويغوص في أعماق النفس فيهزها هزاً بضرب الأمثلة، والعمد إلى السجع حيناً والتزادف حيناً آخر مع الاقتباس من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في بعض الأحيان⁽⁴⁾.

ومن أشهر الذين اهتموا بالجانب الوعظي في رسائلهم الحسن البصري الذي أورد له التوحيدي رسالة كتبها إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول فيها: "إن الله لا يطالب خلقه بما قضى عليهم وقدّر، ولكنه يطالبهم بما نهى وأمر، فطالب نفسك من حيث يطالبك ربك تتج"⁽⁵⁾، ومنها أيضاً ما كتب زاهدٌ إلى آخر واعظاً إياه: "أما بعد، فإنك في دار تمهيد، وأمامك منزلان

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص82

(2) المصدر نفسه، ج7، ص201-202.

(3) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م، ص103.

(4) الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993م، ص211-212.

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج1، ص208.

لا بد لك من سكن أحدهما، ولم يأتِكَ أمان فتطمئن إليه، ولا براءة فتقصّرهُ، والسلام⁽¹⁾، ومما جاء في الوعظ رسالة محمد بن أبي قتيبة إلى ابن عمر يسأله عن العلم، فكتب إليه ابن عمر: "إنك كتبت إليّ تسألني عن العلم، والعلم أكثر من أن أكتبَ به إليك، ولكن إن استطعت أن تلقى الله كاف اللسان عن أعراض المسلمين، خفيف الظهر عن دمائهم، فافعل⁽²⁾، وعلى هذا النحو رسالة كسرى إلى هرمزد: "استقل كثير ما تعطي واستكثر قليل ما تأخذ، فإن قرّة عين الكريم فيما يعطي، وسرور اللئيم فيما يأخذ، ولا تجعل الشحيح أميناً، ولا الكذاب صفيّاً، فإنه لا عفة مع شح، ولا أمانة مع كذب"⁽³⁾.

ولعلّ من أشرف الوعظ وأجلّه حث الناس على تقوى الله عز وجلّ، وذلك فيما كتب أبو العتاهية الشاعر المعروف إلى سهل بن هارون، وكان مقيماً بمكة: "أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله الذي لا بد لك من تقاته. وأتقدم إليك عن الله عز وجلّ، وأذكرك مكر الله فيما دنت إليك به ساعات الليل والنهار، فلا تخدعنّ عن دينك، فإنها لو ظفرت بذلك منك وجدت الله عز وجلّ أسرع فيك مكرأ، وأبعد فيك أمراً، ووجدت ما مكرت به في غير ذات الله عز وجل غير رادّ عنك يد الله ولا مانع لك من أمر الله..."⁽⁴⁾، وبقيت رسائل الوعظ تشكل جانباً من جوانب الحياة الدينية التي عاشها العرب، لما فيها من حكمة تصقل النفوس وتحيي القلوب، إضافة إلى ما تحمله في طياتها من نصح وإرشاد وتوجيه.

فما زال التذكير بتقوى الله يطبع الكثير من الرسائل الوعظية التي وردت في كتاب البصائر والذخائر، فقد كتب بعض النساك إلى صديق له: "أوصيك بتقوى الله العظيم، فإنها أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضل ما ادّخرت، أعانني الله وإياك عليها وأوجب لنا ولك ثوابها"⁽⁵⁾. ويقول حسين نصّار: وعندما نبحث هذا النوع من الرسائل نجده يختلف عن الأنواع الأخرى، فهو نابع عن عاطفة دينية لا تزيد الإفهام والإخبار فحسب، وإنما تزيد من رغبة المرسل إليه في العمل بما في هذه الرسالة من مواعظ، وأن تكون الرسالة الوعظية مؤثرة في قارئها ودافعة له إلى تغيير وجهة نظره في كثير من الحالات، وإلى أن يقوم بأعمال غير معتادٍ عليها من قبل⁽⁶⁾.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج1، ص208.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص157.

(3) المصدر نفسه، ج7، ص181.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص38-39.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص14.

(6) انظر: نصّار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مصدر سابق، ص106.

مصادرها:

جاءت غالبية الرسائل في هذا الكتاب منسوبة إلى قائلها، لذا أصبح من اليسير على الباحث أن يعرف مصدر الرسالة والعصر الذي كتبت فيه، وقد تبين أن جميع الرسائل التي وردت ذات مصادر إسلامية بدءاً بعصر صدر الإسلام، ثم العصر الأموي حتى منتصف العصر العباسي تقريباً.

1- عصر صدر الإسلام:

شمل هذا العصر رسائل الرسول محمد ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، وقد أورد التوحيدي في كتابه هذا رسالة واحدة للرسول محمد ﷺ إلى بني أسد بن خزيمة ومن تآلف معهم من مضر، وقد أشرنا إليها في موضوع الرسائل الدينية السياسية، وهي من مقتضيات الدعوة الإسلامية وتبليغ دين الله ونشره بين القبائل "إن لكم حماكم ومرعاكم، ولكم مفيض السما حيث انتهى، وصديع الأرض حيث ارتوى..."⁽¹⁾، وقد عمل الرسول محمد ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة على إضعاف شوكة قريش، وزيادة قوة المسلمين من خلال عقد المحالفات مع القبائل العربية لأجل نصرته الدين الإسلامي⁽²⁾.

وقد وردت رسائل لبعض الصحابة كرسالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد "اعلم أن عليك عيوناً من الله عز وجل ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم فإن دم الشهيد يكون نوراً له يوم القيامة"⁽³⁾، ويقول الدكتور مغنية: وقد قام بعد الرسول محمد ﷺ على شؤون المسلمين صاحبه المهاجر الشيخ أبو بكر الصديق، وقد تحمل مسؤوليات جسام ومشكلات خطيرة، ولعل من أشدها ارتداد عدد كبير من القبائل العربية، مما شكل تهديداً عظيماً لكل ما تحقق للعرب من إنجازات دينية وسياسية واجتماعية⁽⁴⁾.

ومن رسائل الصحابة رضي الله عنهم، رسالة علي بن أبي طالب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عندما استعمله على البصرة، فأخذ من بيت المال ما كان فيه وخرج إلى مكة، فكتب إليه علي رضي الله عنه: "أما بعد، فقد علمت ما قال الله عز وجل في الخائنين، فلا ابن

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج1، ص217-218.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص219.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص219.

(4) انظر: مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، ط1، مكتبة الهلال، بيروت، 1995م، ص314.

عمك أسيت، ولا الأمانة أدبت، كأنك لم ترد الله عزّ وجلّ بجهادك، وكأنك لم تكن على ثقة فيه من ربك، وكأنك إنما تكيّد هذه الأمة عن دنياهم، وتسوي غرتهم عن فيئتهم، فلما مكنتك الشدة في خيانة هذه الأمة، أسرعت القدوة، وعاجلت الوثبة، واختطف ما قدرت عليهم من أموالهم...⁽¹⁾.

فكتب إليه ابن عباس رضي الله عنه: "أما بعد، فقد أتاني أنك تعظم عليّ ما أصبت من بيت مال البصرة، ولعمري إن حقي في بيت مال الله لأكثر مما أخذت، والسلام"⁽²⁾. وكتب الصحابي أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي يدعوّه إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: "إن بُعدت الدار من الدار فإن الروح من الروح قريب، وطائر السماء على إلفه من الأرض يقع"⁽³⁾.

2- العصر الأموي:

وردت رسائل كثيرة في البصائر والذخائر تعود إلى العصر الأموي، فمنها رسالة عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- حينما بلغه أن ابنه اشترى خاتماً قيمة فصّه ألف درهم، فكتب إليه عمر: "عزمتُ عليك لما بعت خاتمك بألف درهم، وجعلتها في ألف بطن جائع فقير، واستعملت خاتماً من ورق، وجعلت فصّه منه ونقشت عليه "رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه"⁽⁴⁾.

ومن رسائل هذا العصر رسالة الأحنف بن قيس إلى رجل "أما بعد، فافرغ من جهادك، وزمّ زادك، وكنّ وحيّ نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك"⁽⁵⁾ ومنها رسالة معاوية ابن أبي سفيان إلى مروان بن عبد الملك "ابعث لي بالمنبر واقلعه، فأصاب الناس ريحاً مظلمة حتى ظهرت الكواكب نهاراً ثم انجلت، فقال مروان: إنكم تزعمون أن أمير المؤمنين أمرني بقلع منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وإرساله إليه؟! أمير المؤمنين أعرف بالله منكم، إنما أمرني برفعه عن الأرض، ثم عمل عليه ست درجات، فما زاد أحدٌ بعده"⁽⁶⁾، ومن أشهر الرسائل التي ترجع إلى هذا العصر رسائل عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي، فقد قال أبو ماهر: كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه بأن يستأصل جذور النفاق في العراق، فيقول: "أما بعد، أصلح الله أمير المؤمنين، فإن النفاق قد فرّخ بيضه في العراق،

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص188.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص189.

(3) المصدر نفسه، ج8، ص40.

(4) المصدر نفسه، ج9، ص168.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص199.

(6) المصدر نفسه، ج7، ص124.

وشبَّ فيها وأشيب، ووكرَّ فيها وقرَّ، وأوطن عقر دارها، ونفت حمته على أهلها، فلكلَّ ناعق مُجيب، ولكل داع مُلبٌّ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في اجتثاث هذه العروق الناجمة، واستعمال هذه المقادح الناشبة فعل، فإن في ذلك صلاح جنده ودهمائه⁽¹⁾.

فكتب إليه عبدُ الملك بن مروان: "أما بعدُ يا حجاج، فمه، فلا أرب لأمير المؤمنين في تسليط عاديتك، وإعمال فورتك، وإرسال حيفك، لا يفعلُ ذلك أمير المؤمنين ما خدمت نارها، وقلَّ شغب من فيها"⁽²⁾.

3- العصر العباسي:

رسائل هذا العصر في كتاب البصائر والذخائر أكثر من سابقتها في عصري صدر الإسلام والعصر الأموي، ولعلَّ السبب يعود إلى طول المدة الزمنية لهذا العصر قياساً بما سبق من عصور، وربما يعود السبب إلى المعاصرة إذ عاصر التوحيدي هذه المدة ووقف على نصوص رسائلها، فأورد منها قدراً صالحاً في كتابه، إضافةً إلى كثرة الرسائل الإخوانية التي كانت غالبية على رسائل العصر العباسي؛ والذي اختلف واقعه عن العصور التي سبقته لأن هذه الرسائل وليدة البيئة، من ذلك نجد أن أغلب الرسائل العباسية رسائل إخوانية.

ومن هذه الرسائل رسالة لأبي عثمان الجاحظ، ت 255هـ إلى محمد بن عبد الملك الزيَّات يقول فيها: "حاجتي والله أن أخفَّ على قلبك، وأن أحلوَّ في صدرك، ولربما ميَّلتُ بين ألا تكون على قلبك منِّي مؤونة، وبين أن أكون عندك من الأوفياء الساترين، فأجدني إلى تلك أميلَ مني إلى هذه"⁽³⁾، ورسالة يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد يطلب منه العفو فيقول: "يا أمير المؤمنين إن كان الذنب خاصاً فلا تعمَّ بالعقوبة، فإن الله تعالى يقول: (ولا تزرُ وازرة وزرَ أخرى)"⁽⁴⁾، ومنها رسالة الشاعر أبي تمام إلى صديق يسكر من قدحين، فكتب إليه يدعوه: "إن رأيت -أعزك الله- أن تنام عندنا فافعل"⁽⁵⁾.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 6، ص 187-188.

(2) المصدر نفسه، ج 6، ص 188.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 132.

(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 167.

(5) المصدر نفسه، ج 4، ص 55.

وكتب إبراهيم بن العباس الصولي، ت243هـ إلى صديق له: "أنصف الله شوقي إليك من جفائك، وأخذ لبري من تقصيرك، ولا سلط الدهر على حسن الظن بك، كما سلطه على لصيق محلي منك"⁽¹⁾.

وثمة رسالة للشاعر المشهور من شعراء الدولة العباسية منصور بن سلمة النّمري كتبها إلى هارون الرشيد: "والله يا أمير المؤمنين ما وخرتتنا شكوتهم ولا أمضتتنا فرحتهم، وإنما نحن حرمة من حرمك، وطرف من أطرافك، ننشدك الله أن تحوّل غضبك لنا غضباً علينا ونعمتك فينا نعمة منا، فقد صرنا نشتهي أن لا تغضب لنا بأن لا تغضب علينا، وأنا لا تنتقم فينا بأن لا تنتقم منا"⁽²⁾، وقد كتب الحسن بن سهل السرخسي وزير المأمون ت236هـ رسالة إلى الخليفة المعتصم لما أقطع ضياعه: "قد عرفت رأي أمير المؤمنين في إقطاعك الضياع، فرأيت أن لا يعترض على عقبك عقي وأنفذت إليك بقبالاتها، معتمداً على قبولها بإسباغ النعمة عليّ، وادّخار الشكر لديّ، فرأيك -أيّدك الله- في الامتنان بقبولها مسؤولاً إن شاء الله"⁽³⁾.

وظائفها:

انقسمت الرسائل التي وردت في كتاب البصائر والذخائر ثلاثة أقسام: رسائل ديوانية رسمية بأنواعها، ورسائل إخوانية، ورسائل وعظية، ولا شك أن لكل قسم منها وظيفته الخاصة به، فلو بدأنا الحديث عن وظيفة الرسائل الديوانية لعلمنا أن وظيفة ديوان الرسائل وظيفة دينية سياسية إدارية نتيجة للظروف التي اقتضتها الحاجة لمثل هذا النوع من الرسائل في عصر ولادة الإسلام، فالحاجة إلى التبليغ لنشر مبادئ الدين والعقيدة صنع هذا الفن الكتابي وجعل منه وظيفة قائمة على إدارة كلّ ما يخص شؤون الراعي والرعية التي تبنتها الدولة الإسلامية الحديثة.

يقول صلاح الدين الهادي: "اقتضت ظروف الدعوة الجديدة، والدولة الناشئة اصطناع الكتابة في مجالات شتى، كالكتابة إلى العمال والولاة، وقادة الجيوش، ورعايا الدولة الجدد في

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج5، ص32.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص171-172.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص131.

الأمصار المفتوحة، لشرح سياسة الدين والدنيا، أو لتنظيم العلاقة بينهم وبين العرب الفاتحين، فضلاً عن الكتابة إلى الأبناء موصين أو واعظين⁽¹⁾.

وقد أشار الفخوري إلى وظيفة الرسائل الديوانية من خلال الحديث عن قيمتها، والتي ترمي إلى غرض ديني أو سياسي لا ترمي إلى غيره، وهي طريق إلى الإفهام والإصلاح⁽²⁾ أضف إلى ذلك أن الكتابة كانت عاملاً أساسياً يعتمد عليه القادة في فتوحهم إذ يتحينون الخليفة في خططهم وتصرفاتهم بواسطة كتبهم المتتالية وللمرء أن يعجب غاية الإعجاب من اهتمام العرب بالكتابة ومدى تطورها في العصر الإسلامي حتى استقيد منها في أكثر شؤون الدولة⁽³⁾.

وقد أشار الدكتور مغنية إلى وظيفة أخرى للرسائل الديوانية التي من شأنها تنظيم شؤون الدولة الإسلامية التي أصبحت مترامية الأطراف، فكانت هي الوسيلة الوحيدة للاتصال بين الخليفة وولاته في الأقطار البعيدة عن مركز الخلافة، لتقديم النصح إليهم فيما يخص توجيه الجيوش وعمليات الفتح، وإبداء الرأي في خططها، وإجاباتهم على ما يطلبونه من دعم، وإمدادات إضافة إلى تنظيم العلاقات مع البلاد المفتوحة على أسس تحكمها المبادئ والقيم الإسلامية، وإقرار القوانين التي تُيسر للناس أمورهم على أساس الشريعة والسنة النبوية في مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية⁽⁴⁾. ومن أبرز ما عالجت الرسائل الديوانية الشؤون السياسية وما صاحبهما من صراعات، فكانت الرسائل الوسيلة الإعلامية المهمة في بث الآراء المختلفة⁽⁵⁾.

أما وظيفة الرسالة الإخوانية، فهي لا تخلو من أن تكون وظيفة نابغة عن مشاعر وأحاسيس وعواطف المرسل تجاه المرسل إليه، وهي تعبير عما تكنه الصدور من حب، وشوق، وعتاب، ونصيحة، وفي بعض الأحيان يكون توبيخاً وسخرية، فالرسائل الإخوانية جاءت لوظيفة خاصة وهدف خاص، فهي تصريح عن الذات تجاه أمر معين، وهي دعوة

(1) الهادين صلاح الدين، الأدب في عصر النبوة والراشدين، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م، ص137.

(2) انظر: الفخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مصدر سابق، ص384.

(3) الصقار، ابتسام مرهون، الأمالي في الأدب الإسلامي، د.ط، دار الحكمة، بغداد، 1991م، ص319.

(4) انظر: مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، مصدر سابق، ص315.

(5) انظر: رضا، غانم جواد، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، د.ط، المكتبة الوطنية، بغداد، 1978م، ص217.

أخلاقية اجتماعية حقيقية، كالحث على التمسك بالأخلاق الفاضلة، والدعوة إلى التصالح بين الإخوان، وترك الشحناء، وأنها تزيد من أواصر المحبة والإخاء.

وأما وظيفة الرسائل الوعظية، فهي تقوم على أساس إيصال لفكرة معينة وإظهارها والأخذ بها والاعتبار منها على أنها توجيهات دينية تصدر من خواص الناس، كالعلماء، والخلفاء والأمراء، والوعاظ والزهاد، وغيرهم من أهل العلم والمعرفة من لهم دراية في جوانب الحياة المختلفة.

موضوعاتها:

تضمنت الرسائل في كتاب البصائر والذخائر موضوعات عدة، يمكن إبرازها من نوع الرسالة أهى ديوانية رسمية؟ أم هي رسالة إخوانية أم رسالة وعظية دينية؟ وذلك أن الرسائل العامة التي تخص شؤون الدولة والمجتمع بصورة عامة تختلف أغراضها عن الرسائل الخاصة أو الشخصية، وبالنتيجة نجد لكل نوع موضوعات خاصة به تعالجها الرسالة نفسها، فإذا بدأنا بموضوعات الرسائل الديوانية الرسمية نجدها كالآتي:

أ- موضوعات دينية:

إذا قامت الخلافة على أصل ديني، فطبيعي أن يصدر عن هذا الديوان أيضاً الرسائل الدينية⁽¹⁾.

من ذلك نجد أن الكثير من الرسائل الديوانية غلب عليها الطابع الديني، وهو المقصود في وضع هكذا رسائل، وقد حرص الخلفاء كل الحرص على الاهتمام بالرعية وإقامة العدل وتطبيق شرع الله من توجيه رسائلهم إلى الولاة والعمال وغيرهم من أصحاب الشأن ممن عُنوا بهذا الأمر، ومما جاء في هذا المعنى رسالة الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى معاوية وهو يحثه على اتباع الحق، فيقول: "الزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق، يوم لا يقضى إلا بالحق"⁽²⁾، وعلى هذه الشاكلة رسالة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- إلى سلمان الفارسي وهو في المدائن يحذره من فتنة الدنيا: "أما بعد، فإن مثل الدنيا مثل الحية لئى مسّها، قاتل سمّها، فاعرض عما يعجبك منها، لقلة ما يصحبك عند مفارقتها، وضع عنك همومها، لما تؤمن به

(1) حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مصدر سابق، ص54.

(2) التوحدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص138.

من سرعة فراقها، ولتكن أسراً ما تكون بها أحذر ما تكون لها، فإن كل من اطمأن إليها وإلى سرورها اشخصته إلى مكروهاها⁽¹⁾.

ومن الرسائل التي صدرت عن الديوان بثوبها الديني رسالة كتبها الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله - إلى عدي بن أرطاة والي البصرة حينما أستاذنه والي البصرة بعذاب الناس الذين يمتنعون عن أدائهم الخراج فكتب إليه عمر قائلاً: "أما بعد، فالعجب كل العجب من إستاذانك إياي عذاب البشر، كأني جنة لك من عذاب الله، أو كأن رضاي ينجيك من سخط الله، فإذا أتاك كتابي هذا فمن أعطاك ما قبله عفواً فاقبله، وإلا فاستحلفه، فوالله لأن يلقوا الله بخيانتهم أحب إلي من أن ألقى الله بعذابهم⁽²⁾.

2- موضوعات سياسية:

وهذا اللون من المكاتبات الرسمية صادر عن ديوان الرسائل، وقد عالج موضوعات سياسية مختلفة فرضتها طبيعة الظروف التي استجدت في العصر الأموي، كما كان بعضها انعكاساً لأصوات الأحزاب والقوى السياسية المناوئة للسلطة الحاكمة، ولعلّ الشؤون السياسية أبرز ما عالجته الرسائل الديوانية، بسبب الأحداث التي شهدتها المجتمع الإسلامي في العصر الأموي نتيجة لكثرة الثورات والاضطرابات الداخلية التي حدثت في ذلك العصر⁽³⁾.

ومن أشهر الرسائل الديوانية السياسية رسائل معاوية بن أبي سفيان الذي كان طرفاً أساسياً في النزاع على السلطة عند حدوث الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه فبدأ هذا الموضوع ينشط على الساحة السياسية بسبب وجهات النظر المختلفة بين المتنازعين على الحكم. فمما كتب معاوية بهذا المعنى رسالة إلى زياد لعزل حريث بن جابر يقول فيها: "اعزل حريثاً بن جابر، فإنني ما أذكر فتنة صفين إلا كانت حرارة في قلبي، فكتب إليه زياد: خفض عليك يا أمير المؤمنين، فقد بسق حريث بسوقاً لا يرفعه عمل، ولا يضعه عزل"⁽⁴⁾، وكتب أيضاً جواباً لعبيد الله بن زياد حينما استشاره في تولية الأحنف بن قيس السند، فقال "بأي أيامه يستحق

(1) المصدر نفسه، ج7، ص164-165.

(2) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص132.

(3) انظر: رضا، جواد غانم، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، مصدر سابق، ص217-218.

(4) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص78. البسوق: علو ذكر الرجل في الفضل، انظر، ابن منظور. لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص20.

ذلك؟ أبخذلانه أمير المؤمنين يوم الجمل، أم بقتاله أيام صفين، أم بمشورته على عليّ يوم صفين بأمر الحكمين، فاضرب عنه⁽¹⁾.

ومن الرسائل الديوانية السياسية التي أثارت اهتمام الخلفاء الأمويين والتي تعنى بتقليد المناصب، وإقامة شؤون الدولة الإدارية وتولية الأحكام إلى أهلها على أساس الكفاءة الدينية والدينية لتحقيق العدل والمساواة بين الناس.

ومما جاء بخصوص هذا المعنى رسالة عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيها: "لا تولينّ الأحكام بين الناس جاهلاً بالأحكام، ولا حديداً طائشاً عند الخصام، ولا طمعاً هلعاً يضرب أهل الغنى ويبيش بأهل السعة، يكسر بذلك أفئدة ذوي الحاجة، ويقطع ألسنتهم عن الإفلاج بالحجة والإبلاغ في الصفة. واعلم أن الجاهل لا يعلم، والحديد لا يفهم، والطائش القلق لا يعقل، والطمع الشره لا تتفع عنده الحجة ولا تُغني فيه البيعة، والسلام"⁽²⁾. وقد كتب الحجاج بن يوسف جواباً لوهرام بن يزداد والي أصفهان عندما شكاه من اختلال حال أصفهان بنقص خراجهم: فأجابه الحجاج بعد أن أثنى على أصفهان بوصف أرضها لما تنبت من كثرة الخيرات من أشجارها وحشيتها، وما فيها من ماء عذب، وهواء نقي. موبخاً إياه ومهدداً بقوله: "أتظن يا وهرام أننا ننفذ لك ما مؤت وسخرت من القول، وقعدت تشير علينا به؟ ...، وأيم الله لتبعثنّ إليّ خراج أصفهان كله وإلا جعلتك طوايق على أبواب مدينتها، فاختر لنفسك أوفق الأمرين أو ردّ، والسلام"⁽³⁾.

وموضوع التهديد أخذ جانباً من الرسائل الديوانية السياسية، فقد كتب يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله يزيد أمير المؤمنين: سلامٌ عليكم، أما بعدُ يا أهل المدينة، فوالله لقد حملتكم على رأسي ثم على عيني ثم على أنفي ثم على نحري، ووالله لئن جعلتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة المتناقل، ولأشردتكم عن أوطانكم ولأترككم أحايث وأيادي سبا، تتسخُ فيها كتبكم ككتب عادٍ وثمود⁽⁴⁾ وقد تدخل في موضوعات المكاتبات السياسية رسائل الفتح حيث وردت رسالة في فتح عمورية كتبها المعتصم إلى المأمون لما فتح عمورية قال فيها: "كتبت في الوقت الذي فتح الله المصّر على أعدائه والكفرة به، ودخلت عمورية وقتلت أكثر مقاتليها إلا القلّ اليسير، وسُبيت جميع

(1) المصدر نفسه، ج1، ص235.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص219.

(3) المصدر نفسه، ج9، ص142-143.

(4) المصدر نفسه، ج9، ص122-123.

ذرايرها...⁽¹⁾ ومن ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية في العصر الأموي يلاحظ أنها تتناول تصريح أعمال الدولة، وما يتصل بها من تولية الولاة، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود، ومن الفتوح والجهاد، وأخبار الولايات وأحوالها من المطر والخصب والجذب وعهود الخلفاء ولأبنائهم، ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم⁽²⁾.

أما الرسائل الإخوانية فقد اختلفت موضوعاتها عن موضوعات الرسائل الديوانية لاختلاف الأشخاص التي تصدر عنهم الرسائل الديوانية، واختلاف الوظيفة التي تدعو إليها الحاجة، من ذلك نجد أن الرسائل الإخوانية لم تقتصر موضوعاتها على جانب معين، بل تعددت حتى شملت جميع الجوانب الاجتماعية، كالأعراف والعادات والتقاليد القائمة على الأصول الأخلاقية والنابعة عن الشعور بالمسؤولية، ولما للناس من حقوق وواجبات على بعضهم الآخر، فمن الموضوعات التي وردت في هذه الرسائل هي:

1- تعزية أهل المصائب:

وهي التي يعبر فيها الكاتب عن حزنه ومواساته لأخيه في مصيبتة، ويدعوه إلى الثبات والصبر، وحسن الظن بالله، وأن الدنيا جبلت على الفناء، وعلى الإنسان أن يعتبر بمن قد مات، وأن الموت سبيل كل حي. فكل هذه المعاني نراها في رسائل التعزية التي وردت في كتاب البصائر والذخائر، فقد كتب بشار بن برد المرعث إلى أخ له يعزيه، فيقول له: "أما بعد، فإن أحق ما اغتئنا حلوه، وصبرنا على مرّه، واستدما مكروهه، ونافسنا فيه أهله، وأحق ما أغلقنا أبوابه، وحرمتنا أسبابه، وزهدنا في ودّه، ومللنا فجائعه، الدنيا التي لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها، وقد أخبر الله تعالى عنها، وكفى بها خبيراً، فقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ

زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾⁽³⁾، فكتاب الله موعظتنا

ورسول الله ﷺ أسوتنا، فأى موعظة بعد كتاب الله، وأي أسوة بعد رسول الله، وقد قال الله

تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾⁽⁴⁾.

ثم دعا للميت بالثواب والمغفرة، وللمعزى بإلهام الصبر، وتعويض الأجر⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ج6، ص133.

(2) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، مصدر سابق، ص468.

(3) سورة الكهف: آية (46).

(4) سورة الأحزاب، آية (21).

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص242.

ومن الرسائل في تعزية أهل المصائب رسالة عمر بن عبد العزيز رحمه الله - إلى عون بن عبد الله يعزیه بابنه: "أما بعد، فإنا ناس من أهل الآخرة أسكنّا الدنيا أمواتاً أبناء أموات، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزیه عن الميت والسلام"⁽¹⁾، ومن رسائل التعزية رسالة لإبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي إلى المهدي يعزیه عن ابنته: "أما بعد، فإنه من عرف حق الله فيما أخذ منه عظم حق الله تعالى عليه فيما أبقي له، وأعلم أن الماضي قبلك هو الباقي بعدك، والباقي بعدك هو الماضي قبلك، وأنّ أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعاقبون عليه"⁽²⁾.

2- التهنئة:

من الموضوعات التي تضمنتها الرسائل الإخوانية، التهنئة بالمولود، وذلك في رسالة كتبها إسحاق بن يحيى إلى آخر يهنيّه ببنت: "ربّ مكروه أعقب منفعة، وربّ محبوب أعقب مضرة وخالق المنفعة والمضرة أعلم بموضع الخيرة"⁽³⁾.

3- الشكر والثناء:

الشكر والثناء من الموضوعات التي تناولتها الرسائل الإخوانية، فيقوم بها الكاتب بعد إسداء معروف له، فيمدح المسدي له ويثني عليه ويدعو له بالخير، من ذلك ما كتبه الحسن بن سهل إلى آخر، فيقول: "فأعطاك الله من الخير أغنى ما يفي بأنعمك علي، وبلغني في كلّ صغير وكبير رضاك، وأعانني على بادية حقك حتى ينقلني من الدنيا على طاعتك"⁽⁴⁾.

4- الاعتذار:

ورد موضوع الاعتذار في الرسائل الإخوانية وغالباً ما يُسبق بالدعاء والمدح والثناء لقبول اعتذار من يرى نفسه مخطئاً أو مقصراً، وهذا ما نقرأه في رسالة الرشيد إلى الفضل بن يحيى يقول فيها: "أطال الله يا أخي مدتك، وأدام نعمتك، والله ما منعني من إتيانك إلا التطهير من عيادتك، فاعذر أخاك، فوالله ما قلاك ولا سلاك، ولا استبدل بك سواك"⁽⁵⁾.

5- الإهداء:

-
- (1) المصدر نفسه، ج5، ص226.
(2) المصدر نفسه، ج5، ص226، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص45، وقد ورد اختلاف في بعض الألفاظ.
(3) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص172-173.
(4) المصدر نفسه، ج4، ص132.
(5) المصدر نفسه، ج3، ص98.

وردت بعض الموضوعات فيما يتعلق بالإهداء، وذلك تعبيراً عن المحبة وتجسيدياً لها، وقد قال الرسول محمد ﷺ (تهادوا تحابوا)⁽¹⁾ فالهدية تزيد من أواصر الألفة وترفع البغض والشحناء من القلوب.

ومن الرسائل التي جاءت في الإهداء رسالة كتبها ابن داود الورّاق إلى أخ له وأهدى له مقلّمة، فقال: "إذا كان اللطف دليل محبة، وميسم قربة، وكفى قليله عن كثيره، وناب يسيره عن قليله، ولا سيما إذا كان المقصود به ذا همّة لم يستعظم نفيساً، ولم يستصغر خسيساً، وقد جعلك الله من هذه الصفة بأجل فضائلها، وأرفع منازلها"⁽²⁾، وأهدى فلاناً إلى إسماعيل الأعرج فالودجة زنجة وكتب: "إنني اخترت لعلمها جيد السكر السّوسي، والعسل الماذي، والزعفران الأصفهانى"⁽³⁾.

6- العتاب:

العتاب هو أحد الموضوعات التي تناولتها الرسائل الإخوانية، وقد يأتي عندما يشعر الإنسان بوجود تقصير تجاهه في بعض الأشياء لسبب ما، أو لعمل خارج عن أعرف الناس الاجتماعية، كالقطيعة والهجران. وفي هذا المعنى رسالة إسحاق إلى علي الفضل بن الربيع عندما هجره أياماً، فكتب له إسحاق: "إن لكل ذنب عفواً أو عقوبة، فذنوب الخاصة عندك مستورة مغفورة، فأما مثلي من العامة فذنبه لا يغفر، وكسره لا يجبر، فإن كان لا بد من عقوبة فعاقبني بإعراض لا يؤدي إلى مقت"⁽⁴⁾.

ثالثاً: الخطب

أنواعها:

تعددت أنواع الخطب التي أوردها أبو حيان التوحيدي في كتابه البصائر والذخائر، فمنها ما كان دينياً محضاً كخطب الدعوة إلى الله عزّ وجلّ فيما يخص الناس من واجبات العبودية لله تعالى، ونشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وتوجيه النصيح والإرشاد والحث على مكارم الأخلاق. ومنها ما كان سياسياً يهتمّ بأمور وأحوال الدولة السياسية، كخطب القادة والزعماء وقوّد الجيوش لحل المشاكل والصراعات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية في

(1) البخاري، محمد بن أسماعيل. ت. 256هـ، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط3، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1989م، الحديث: 594، ص208.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص179.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص183.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص198-199.

عصرها عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، وهي تهدف إلى رسم سياسة الدولة وجمع كلمة المسلمين ضد أعدائهم. وقد يدخل في هذا النوع من الخطب خطبُ الاستخلاف والولاية والخطب العسكرية الحربية، ومن الخطب أيضاً الوعظية التي تقوم على الموعظة لأخذ العبرة من أمور الحياة المختلفة وتذكّر زوال الدنيا وبقاء الآخرة، وهي كالاتي:

1- الخطب الدينية والوعظية:

إن أبرز ما يتضمنه هذا النوع من الخطب الدعوة إلى توحيد الله عزّ وجلّ والإيمان به، والتحذير من الشرك وارتكاب المعاصي وتبيان هول ما يلقيه الكافرون والمشركون من عذاب شديد في الآخرة، وما ينعم به المؤمنون المصدّقون في الجنة من نعم لا تحصى، ثم شرح القيم الإسلامية السامية، وتوضيح المعاني الروحية للدين الجديد، والحضّ على العمل الصالح، والتحلّي بمكارم الأخلاق، كما تضمنت شرحاً لتعاليم الإسلام ومبادئه ومقوماته الأساسية من العقائد والعبادات⁽¹⁾.

وقد تتضمن بعض الخطب قضايا أخرى كخطب الرسول محمد ﷺ التي اعتمد عليها ليبين للناس معالم الإسلام الروحية التي تقوم على تأكيد وحدانية الله سبحانه وتعالى، والترغيب في العمل الصالح، والإيمان بأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يجد فيها المرء جزاء ما عمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر⁽²⁾.

فكلّ هذه الأمور نجدها في خطبته ﷺ التي رواها أنس رضي الله عنه فقال: "خطبنا رسول الله ﷺ على ناقته الجداء وليست بالعضباء فقال: أيها الناس، كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وجب، وكأنّ الذي يشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم ونأكلُ تراثهم كأثا مخلدون بعدهم، قد بيئنا كل واعظة، وأمّا كل جائحة. طوبى لمن شغله عيبه من عيوب الناس، وأنفق من مال كسبه من غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن أذل نفسه، وحسّن خليقته، وأصلح سريره، وعزل عن الناس شره. طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله ووسعته السئة، ولم يتعدّها إلى البدعة"⁽³⁾.

(1) مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الراشدي، مصدر سابق، ص332.

(2) انظر: الحاج حسن، حسين، أدب العرب في صدر الإسلام، ط1، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1992م، ص105.

(3) التوحدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج8، ص143.

وهذه الخطب كلها تدور على معاني القرآن الكريم من حيث التذكير بالفناء وانقطاع الرجاء، والاعتبار بمن سلف، وحث الناس على الكسب الحلال والإنفاق مما فضّل منه، وتطهير النفس من الخبث، وإصلاح السريرة، وإمساك اللسان عن الغيبة والنميمة.

وقد وصف الدكتور شوقي ضيف خطب الرسول ﷺ بأنها خطب على هدى القرآن الكريم، فكان ﷺ يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، بلسان الفصاحة، واختيار المعاني والألفاظ والأساليب التي تهشّ لها الأسماع، وتصغي لها الأفتدة، داعياً إلى وحدانية الله، وكان يخطب في صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج⁽¹⁾.

وعلى هذا النحو خطبة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على المنبر يُذكر الناس بالفناء ويدعوهم إلى صالح الأعمال والتزوّد بالتقوى ليوم عصيب، فيقول: "تجهزوا رحمكم الله، فقد نودي بالرحيل، واقلّوا الفرصة على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما يحضركم من الزاد فإن قدّامكم عُقبة كؤوداً، ومنازل مخوفة مهولة، لا بد من الممر عليها، والوقوف عندها، فإما برحمة الله عزّ وجلّ فنجوتكم من فظاعتها وشدة مختبرها، وكراهة منظرها، وإما بهلكة ليس بعدها خيار"⁽²⁾.

يحث الإمام علي الناس على أن يتدبروا أمر دنياهم ليصلحوا أمر آخرتهم، فهو ينظر إلى الدنيا نظرة المدرك لأحوالها وتقلباتها، فيرى أن التبدّل والتحوّل من طبيعة الدنيا، فطبيعتها مؤذنة بالوداع والرحيل، وأن الآخرة قد أشرقت على القيام، فليتخفف الإنسان من مغريات الدنيا ولذاتها، وليتوب إلى ربه من الخطايا التي أشغلته، ويتزوّد بالأعمال الصالحة التي كفلت له النجاة⁽³⁾.

أما الخطب الوعظية، فقد تأتي لموعظة الناس وضرب الأمثال للعبارة، وتذكر الدنيا الفانية، وتندرج ضمن هذه الخطب خطب الرسول محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. ومع تنوّع الخطب في عصر الخلفاء الراشدين، فإن هناك خطباً قائمة على الموعظة المباشرة، وقد كثرت هذه المواقف الوعظية في خطب الإمام نتيجة للظروف السياسية التي مرت بها الدولة الإسلامية، بحيث احتاج الإمام إلى أن يذكر الناس بواجباتهم ويخوفهم شرّ الفتنة، وإن الدنيا

(1) انظر: ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ط7، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص114-115.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص63.

(3) انظر: مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، مصدر سابق، ص351.

غرارة تهوى ضعيفي الإيمان، أما الصابرون والمجاهدون فلهم الأجر والثواب⁽¹⁾، ومن الخطب الوعظية في البصائر والذخائر خطبة قطري بن الفجاءة عندما صعد منبر الأزارقة فقال: "ما نال أحد منها حبرة إلا أعقبته عبرة، ولم يملأ من سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً، ولم يجد منها غنيمة رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء، ولم يمس منها امرؤ في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف"⁽²⁾.

وبقيت خطب الوعظ تسير على منوال التحذير من فتن الدنيا وغرورها، والتذكير بالآخرة ونعيمها، وأن لا يغتر الإنسان بطول الأمل، لأن الآمال تقربها الآجال بسيف الدهر. وقد وعظ سليمان بن عبد الملك الناس بالجابية، فقال: "أيها الناس عظوا أنفسكم، ولا تستسلموا إلى الغفلة فتؤديكم إلى الحسرة، ولا تركزوا إلى الآمال في استسعاف التفريط، فثبيدكم الآجال بسيف المنون أصارنا الله وإياكم ممن حسن في الخير أثره، دعاء مسموعاً، وعملاً مرفوعاً"⁽³⁾.

2- الخطب السياسية:

وهي التي اعتمدها الخلفاء والولاة والقواد في شرح المسائل السياسية: كاستحقاق الخلافة وولاية العهد، وبيان المناهج السياسية كخطب الخلفاء الراشدين⁽⁴⁾. وقد لعبت الخطابة السياسية دوراً خطيراً في العهد الإسلامي، وخصوصاً عندما قامت العصبية بين الهاشميين والأمويين كخطب يوم الجمل صفين، وخطب التحكيم بين علي ومعاوية، وخطبة ولاية الأمويين من مثل زياد والحجاج، وهي صورة لما كان يضطرب فيه العصر من اضطراع بين الأحزاب والسياسات⁽⁵⁾.

وقد نمت هذه الخطابة في العهد الإسلامي، ونهضت نهوضاً عظيماً، إذ دارت على كل لسان مؤيد ومعارض للدولة، وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا ولها خطابؤها، ولعل أشهر حزب بكثرة خطاباته هم الخوارج إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم⁽⁶⁾. وسوف نسوق بعض الخطب السياسية التي جاءت في كتاب البصائر والذخائر، ولعل من أشهرها خطب الإمام علي يوم صفين وهو يقول فيها: "معاشر المسلمين، استشعروا

(1) انظر: الصفار، ابتسام مرهون، الأمالي في الأدب العربي، مصدر سابق، ص303.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص95، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص77.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج5، ص168.

(4) انظر: الحاج حسن، حسين، أدب العرب في صدر الإسلام، مصدر سابق، ص124.

(5) الفخوري، حنا، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ط1، دار الجيل، بيروت، 1985م، ص349.

(6) انظر: ضيف، شوقي، العصر الإسلامي، ط20، دار المعارف، القاهرة، دت، ص410.

الجرأة، وعضوا الأصوات، وتجليبوا بالسكينة، وأكملوا اللأمة، وأفلقوا السيوف في الأغمار قبل السلة، والحظوا الحزراً، واطعنوا الشزراً، وكافحوا بالظبي، وصلوا السيوف بالخطى والبنان بالرماح، فإنكم بعين الله ومع ابن عم نبيّه⁽¹⁾.

انتدب عليّ عليه السلام أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام، فخرجوا معه إلى صفين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده، وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة في صفوف علي عليه السلام وأصحابه، وكان هو نفسه خطيباً مفوهاً⁽²⁾، وأشار الدكتور مغنية إلى أن أسباب ازدهار الخطب السياسية يعود إلى الملابس التي أحاطت بالخلافة بعد موت النبي صلى الله عليه وآله، وتعبيراً عن الصراع الذي حصل فيها، واستجابة للروح الإسلامية الجديدة التي أناطت بكل من الخليفة والناس حقوقاً وواجبات⁽³⁾.

وقد تفرعت من الخطب السياسية العامة خطب أخرى وردت في هذا الكتاب وهي:

أ- خطابة الاستخلاف والولاية:

وتكون هذه الخطابة عند مبايعة خليفة أو تولية والٍ أو عامل، وهدفها تخطيط سياسة أو تسكين فتنة أو ما إلى ذلك⁽⁴⁾.

فمن خطب الاستخلاف والولاية خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال أبو هريرة رضي الله عنه: لما استخلف عمر سعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس إني نظرت إلى الإيمان فوجدته يقوم على أربع خصال، فقام إليه عمار بن ياسر فقال: ما هنّ يا أمير المؤمنين؟ قال: تقوى الله في جمع المال من أبواب حله، فإذا جمعته عففت عنه، وإذا عففت عنه وضعته في مواضعه حتى لا يبقى عندي منه دينار ولا درهم ولا عند آل عمر خاصة، والثانية: أعرف للمهاجرين حقهم وأقرهم على منازلهم، والثالثة: الأنصار الذين آووا ونصروا، أحفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وآله [فيهم] فأقبل من محسنهم وأتجاوز عن مسيئهم وأكون أنا عيالهم حتى ينصرفوا

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص77. الخزر: النظر بمؤخرة العين، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص236.

(2) ضيف، شوقي، العصر الإسلامي، ط7، مصدر سابق، ص110.

(3) انظر، مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، مصدر سابق، ص363.

(4) الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مصدر سابق، ص337.

إلى منازلهم، والرابعة: أهل الذمة، أفي لهم بعدهم وأقاتل من ورائهم ولا أكلفهم إلا طاقاتهم؛ قال: إذا فعلت ذلك كنت معترفاً عند الله -جلّ اسمه- بالذنوب⁽¹⁾.

ومن المعلوم أن خطب الاستخلاف والولاية تكون خطباً دينية بثوب سياسي، لأن الخلافة لا تؤلى إلا لمن كان ذا دين وورع حريصاً على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم يستطيع أن يضع الأسس الدينية والدنيوية التي من شأنها القيام بخدمة الرعية، وإن الهدف الأسمى والغاية العظمى من هذه الخطب هو بيان سياسة الخليفة التي سيقوم برسمها، وتوضيح ما للناس من حقوق وما عليهم من واجبات، وكلّ هذه الأمور قائمة على مبدأ العدل وفق ما تقتضيه الشريعة السمحاء، وهي جزء من الأمانة التي استؤمن عليها الخليفة، ونجد أن عمر رضي الله عنه بدأ أولاً بالأسس التي يقوم عليها الإيمان الذي أصله تقوى الله في كل شيء.

وعلى النحو نفسه من خطب الاستخلاف والولاية الخطبة المشهورة بالخطبة البتراء لزياد بن أبيه على المنبر حيث يقول: "أما بعد، فإننا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي ملّكنا، ونذبّ عنكم بفيء الله الذي حولنا، فلنا عليكم حقّ الطاعة فيما أمرنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا بطاعتكم، وصفو مودّتنا بمناصحتكم، مع أنني مهما قصرتُ في شيء فلست مقصراً في ثلاث: [لست محتجاً على طالب حاجة منكم، ولو أتاني طارقاً لبليت]، ولا مجمراً لكم بعثاً، ولا حابساً عنكم عطاءً، فادعوا الله لأئمتكم بالصلاح، فإنهم ساستكم المؤدّبون، وكهافكم التي إليها تأوون، ومتى يهلكوا تهلّكوا، ولا تشعروا قلوبكم بغضاءهم فيطول غيظكم ثم لا تظفروا بحاجتكم؛ نسأل الله أن يعين كلا على كل"⁽²⁾.

وهذه الخطبة شأنها كشأن سابقتها من خطب الاستخلاف والولاية، حيث قام الوالي بشرح سياسته تجاه رعيته، وأنها تقوم على مبدأ الثواب والعقاب وحثهم على طاعة الولاية والدعاء لهم بالصلاح.

وتقول الدكتورة ابتسام الصّفار: إذ سرت العادة في خطب الولاية، فترى الوالي يجمع القوم الذين تؤلى عليهم ليبين لهم نهجه فيهم، لذا اتسمت خطب الولاية بالصراحة في خطاب الناس وتهديدهم إن لم يبايعوه، حيث اختلفت أساليب الولاية في ذلك، فمنهم من يريد الطاعة بالنصح والإرشاد، والبعض الآخر يريد بها بالقوة والردع حسب الظروف التي تتطلبها، وهذا ما نلاحظه في الخطبة البتراء لزياد بن أبيه، حيث اتسمت بأكثر من طابع خطابي، إذ بدأ

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص139-140.

(2) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص240، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص39.

خطبته بأسلوب مقرر، ثم خفت لهجته، فذهب لبيان فكرة كونه الوالي الذي وكلت إليه أمور الناس ليرعى مصالحهم، ويتبع العدل، ويطلب منهم إسداء النصح له بقدر إشاعته العدل فيهم⁽¹⁾.

ب- الخطابة الحربية أو خطابة الفتوح:

وهي التي قالها قوَاد الجيوش والأمراء عند الزحف والتقاء الصفوف عند القتال، فكان لا بدّ للقائد من إلقاء خطبة يوصي بها الولاة، ويوضح لهم هدفهم ويعظم ويرشدهم إلى ما فيه نجاحهم، بما كان يليق من الحماسة في قلوبهم⁽²⁾، وهذه الخطابة من النوع العسكري الحربي، فكانت مظهراً من مظاهر الحماسة وإشادة بالظفر، ومن أشهرها خطبة عتبة بن غزوان بعد فتح الأبله في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد قال فيها: "أما بعد، فإن الدنيا آذنت أهلها بتصرّم، وولّت حداء، فلم يبق فيها إلا صباية كصباية الإناء، فتزودوا خير ما يحضركم وهو تقوى الله جل جلاله وطاعته، والانتهاة عن معصيته، ولقد رأيتني في سبعة نفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، نأكل العَصاة حتى قرحت أشداقنا، ثم أصبحنا وما منّا أحد إلا على كورةٍ من هذا الكور"⁽³⁾.

تعدّ هذه الخطبة من الخطب السياسية التي تساند الخطب الدينية، وتكون امتداداً لها فالعهد عهد صراع، ولا بد من خطابة سياسية تجمع شمل العرب في ظل النظام الجديد وكم مرة وقف الخلفاء الراشدون يبعثون الحميّة في الصدور، والقوَاد يذكون الحماسة في القلوب، وكم كان لهذه الخطابة الحربية من أثر في النفوس، والتي تعدّ خطبة عتبة بن غزوان عند فتح الأبله من أشهرها⁽⁴⁾. وخطب حذيفة عند دخوله المدائن بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "إنّ الدنيا دار هُدنة، ومنزل قلعة، والسيرُ بكم إلى دار المقامة، فأعدّوا الجهادَ لبعد المفازة"⁽⁵⁾.

(1) انظر: الصقار، ابتسام مرهون، الأمالي في الأدب الإسلامي، مصدر سابق، ص293.

(2) الحاج حسن، حسين، أدب العرب في صدر الإسلام، مصدر سابق، ص124.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج5، ص21، وانظر: الفاخوري، حنّا، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، مصدر سابق، ص347، وانظر: الجاحظ البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص35،

وانظر: ضيف شوقي، العصر الإسلامي، ط7، مصدر سابق، ص108.

(4) الفاخوري، حنّا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مصدر سابق، ص227.

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج7، ص123-124.

مصادرها:

جاءت الخطب التي وردت في كتاب البصائر والذخائر من مصادر متعددة، بدءاً من العصر الجاهلي وانتهاءً ببداية العصر العباسي الثاني، وقد دللنا على ذلك ذكر أسماء الخطباء، فأصبح من اليسر علينا معرفة مصدر الخطبة والعصر الذي قيلت فيه، وهي كالآتي:

1- مصادر جاهلية:

لم ترد في كتاب البصائر والذخائر سوى خطبة واحدة تعود إلى العصر الجاهلي وهي خطبة قبيصة الشيباني في يوم ذي قار، وهي من الخطب التحريضية التي يحرض فيها قومه بني بكر ضد الفرس فيقول: "الحذر لا يغني من القدر، والدنية أغلظ من المنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر خير منه وأكرم من الدبر. يا بني بكر حاموا فما من المنايا بد؛ هالك معذور خير من ناج فرور"⁽¹⁾.

2- مصادر إسلامية:

إن الخطب الإسلامية في كتاب البصائر والذخائر جاءت على وتيرة واحدة من حيث الفكرة والمضمون في عصري صدر الإسلام والعصر الأموي، واختلفت عنها في العصر العباسي بعض الشيء.

أ- خطب الرسول محمد ﷺ:

ومنها الخطبة التي وردت برواية ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في منى، فقال للأنصار: "ألم تكونوا ضللاً فهذا كم الله سبحانه وتعالى بي؟ ألم تكونوا إذلاء فأعزكم الله سبحانه وتعالى بي؟ ثم قال: ما لي أراكم لا تجيبون؟ قالوا: ما نقول؟ قال: تقولون: ألم يطردك قومك فأويناك وكذبوك فصدّقناك؟ قال: فجتوا على الركب، قالوا: أنفسنا وأموالنا لك يا رسول الله، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾

﴿(2)﴾ وقد وردت خطبة أخرى للرسول صلى الله عليه وسلم أشرنا إليها سابقاً في أنواع الخطب.

ب- خطب الصحابة رضي الله عنهم:

(1) انظر: المصدر نفسه، ج7، ص190.

(2) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص189.

وردت خطب عديدة للصحابية، وقد ذكرنا بعضها في مواضع متقدمة من البحث، وبقي منها ما نسوقه في موضوع مصادرها، فمنها خطبة عمر الفاروق رضي الله عنه يقول فيها: "ياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة مفسدة للجسم، مؤدية إلى السقم، وعليكم بالقصد في قوتكم، فإنه أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه"⁽¹⁾، وخطب النعمان بن بشير رضي الله عنه على المنبر: "أيها الناس خذوا على أيدي سفهائكم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن قوماً ركبوا البحر في سفينة فاقتسموها، وأخذ كل رجل مكاناً، فأخذ بعضهم الفأس فنقر مكانه، فقالوا له ما تصنع؟ قال مكاني أصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يده نجوا، وإن تركوه هلكوا"⁽²⁾.

ج- العصر الأموي:

هناك خطب وردت تعود لأعلام عاشوا في عصر بني أمية، ومن أشهرهم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

قال عدي بن الفضل: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب بخصاصره ويقول: "يا أيها الناس، إن يكن لأحدكم رزق في رأس جبل أو حضيض أرض يأتيه، فأجملوا في الطلب"⁽³⁾، وممن اشتهروا بالخطب في العصر نفسه الحجاج بن يوسف الثقفي. قال مالك: سمعت الحجاج على المنبر يخطب ويقول: "امرءاً اتهم نفسه، امرءاً اتخذ نفسه عدوّه، امرءاً أخذ بعنان عقله فنظر إلى ما يراؤ به، امرءاً زود نفسه، امرءاً حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب، امرءاً نظر إلى ميزانه"⁽⁴⁾.

ومن خطب العصر الأموي خطبة زياد بن أبيه التي رواها العتبي، فقال: خطب زياد الناس، فقال: "الأمور جارية بأقدار الله، والناس متصرفون بمشيئة الله، وهم بين متسخط وراض، وكلّ يجري إلى أجل وكتاب، ويصير إلى ثواب وعقاب، ألا ربّ مسرور لا نسُرّه وخائف من ضررنا لا نضرّه"⁽⁵⁾.

د- العصر العباسي:

من الخطب التي ترجع إلى هذا العصر خطبة عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي توفي في زمن المأمون، حيث صعد منبر المدينة، فقال:

(1) المصدر نفسه، ج6، ص71.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص202.

(3) انظر: التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص189.

(4) انظر: المصدر نفسه، ج3، ص16.

(5) انظر: المصدر نفسه، ج6، ص70.

"إنه لا يزال يبلغني أن القائل يقول: إن بني العباس فيءٌ لنا، نرتع في أموالهم ونخوض في دمائهم، عزم بلا علم، وفكر بلا رويّة، وخطة يركبها الغاؤون، عجباً لمن أطلق بذلك لسانه، وبسط به يده وأطمع في ميلي معه، وتبسطي يدي بالجود له؟ هيهات، فاز ذو الحق بما قد ردّ ما يهوى، وأخطأ الظالم ما تمنى -حق كل ذي حق بيده، وكل ذي دعوى على حجته..."(1).

ومن خطب العصر العباسي خطبة لسديف بن ميمون الذي قتله العباسيون سنة 146هـ، قال فيها "قد صار فيئنا دولة بعد القسمة، وإمامتنا غلبة بعد المشورة، وعهدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة، واشتريت المعازف والملاهي بسهم اليتيم والأرملة، وحكم في أبشار المؤمنين أهل الذمة، وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة، اللهم قد استجد الباطل، وبلغ نهيته، وزخرف وليّده، واستجمع طريده، وضربَ بجرانه، اللهم فأتح له من الحق يداً حاصدةً تبدد شمله، وتفرق أمره، ليظهر الحق في أحسن صورة، وأتم نورة"(2).

وظائفها:

يجدُ الدارس للخطب في كتاب البصائر والذخائر وظائف عدة تمخضت عن الواقع على الصعيد الديني والفكري والسياسي، وهذه الأصعدة وليدة الظروف التي عاشها العرب مواكبين لها عبر العصور المتتابعة، حيث اختلفت وظائف الخطب الجاهلية عن وظائف الخطب الإسلامية، فالخطب الجاهلية تقوم وظائفها على المنافرات والنثار والانتقام والحمية والتصعيد ضد الخصوم، كما لاحظنا في خطبة قبيصة الشيباني يوم ذي قار، أما الخطب الإسلامية عبر عصورها، فقد أخذت وظيفة دينية تصبّ في الصالح العام للمجتمع المسلم دون تمييز بين أحد، بل المعيار الوظيفي لها هو نصره الدين الإسلامي، ومن أهم وظائفها:

1- نشر الدين الإسلامي الحنيف:

أصبحت الخطبة الإسلامية أداة للدعوة، واللسان الناطق بالرسالة، فهي تشرح للناس أسرارها، وتبين المثل والقيم التي أتت بها، وتوضح خفاياها، وتحبب الناس فيها، وتدلهم على الهدى والحق والرشد والصلاح، وهذا ما نراه في الخطب الدينية والوعظية والخطب الرسمية كخطب الجمع والأعياد(3). وقد اعتمد الرسول محمد ﷺ الخطابة على نطاق واسع منذ الأيام الأولى للدعوة؛ إذ كان يقوم في الناس خطيباً ليبين لهم حقيقة الدعوة الإسلامية وشرح تعاليمها

(1) انظر: المصدر نفسه، ج2، ص74-75.

(2) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج3، ص90-91.

(3) خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980م، ص117-118.

ويحثهم على الإيمان بالله تعالى ونبذ الشرك، ويعظمهم ويذكرهم ساعياً إلى إقناعهم والتأثير فيهم⁽¹⁾، وكانت أيضاً تشريعاً وتنظيماً لحياة هذه الأمة التي أخرجت الناس في خير مثال تأمر بالمعروف وتنتهى عن المنكر، ويتعاون أفرادها على البر والخير ما فيه صلاح مجتمعهم⁽²⁾.

2- رسم سياسة الخليفة.

كانت الخطابة للخلفاء من بعد الرسول ﷺ أداة يرسمون بها سياستهم في رعاياهم، ويحددون دساتيرهم التي يلتزمون بها في حكم الناس ومعاملاتهم⁽³⁾.

3- الحث على الجهاد ومواجهة الخصوم:

دخلت الخطابة ميداناً جديداً وأصبحت لها وظيفة أخرى هيأتها الظروف التي استجدت بعد وفاة الرسول محمد ﷺ، كالخلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة، وردة العرب عن الإسلام في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، واتساع الفتوح في خلافة عمر وعثمان، وما اقتضاه ذلك من الحث على الجهاد، وجمع الكلمة والقلوب، ورسم السياسة لأمرء الجيوش، والقواد والولاة والمجاهدين، وإذكاء لروح الجهاد وإبرازاً لفضيلته، بالتركيز على أنه سبيل المسلم إلى الجنة⁽⁴⁾، لذلك كان المجاهدون الأبرار يندفعون إلى بلاد بعيدة يفتحونها ليخلوا السبيل ممهداً أمام الإسلام ليدخلها ويعمها ويرفع عن كاهل أبنائها ظلم الطغاة واستبدادهم. وكانوا في حروبهم الجهادية بحاجة إلى مدد معنوي متصل. فمن هنا كانت الحاجة ماسة إلى خطباء مفوهين يلهبون الحماسة في نفوس الناس ليشاركوا في ساحات الجهاد⁽⁵⁾.

ويقول الدكتور شوقي ضيف متحدثاً عن الفتن التي وقعت بين الأمويين والشيعة للخلاف على الإمامة: وهذه الأحزاب والثورات لم تكن تستعين بالسيوف فحسب، بل كانت تستعين بالخطب، والخطباء يحمسون الناس على الانقضاض على خصومهم من بني أمية⁽⁶⁾ وقد اتخذوا من الخطابة أداة للظفر في آرائهم السياسية والانتصار في مجادلاتهم المذهبية

(1) مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، مصدر سابق، ص329.

(2) انظر: ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط12، دار المعارف، مصر، د.ت، ص53.

(3) انظر: خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، مصدر سابق، ص118.

(4) انظر: الهادي، صلاح الدين، الأدب في عصر النبوة والراشدين، مصدر سابق، ص166.

(5) انظر: مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، مصدر سابق، ص65.

(6) انظر: ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مصدر سابق، ص65.

وعولوا عليها في قصصهم ومواعظهم⁽¹⁾، وكان لها دور هام في الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية، فكانت أداة المتحاورين، ووسيلة المتجادلين، يوضح كلّ منهم بها مذهبه، ويدلي بحجته⁽²⁾.

4- توضيح نظم الحياة الاجتماعية:

جاءت هذه الوظيفة على أساس المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات وإقامة العدل بينهم في سبيل الحق والخير، وتوضيح العلاقات بين الأفراد القائمة على مبدأ الأخوة والعلاقات الزوجية، ووضع الحلول لمشاكل المجتمع من رق وعبودية وتوزيع الثروات، والمشاكل التي تتعلق بالفقراء، وغيرها بما يحقق سعادة البشر⁽³⁾.

وخلاصة القول أن وظائف الخطابة الإسلامية، الدينية والسياسية والوعظية تدعو الناس إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وحث الناس على الجهاد في سبيل الله، وإثارة الإيمان والعقيدة في النفوس حتى تقبل على الحرب بعزيمة صادقة وهمة متفانية، وشرح آداب الدين، وتبيان أسرار ومزاياه، ولفت الناس إلى ما يصلحهم في دنياهم، ثم الدعوة إلى الزهد وترك ملذات الدنيا ونعيمها⁽⁴⁾.

أما في العصر العباسي، فقد أخذت الخطابة وظيفة التحريض، فأصبحت أداة يستعين بها العباسيون في بيان حقهم في الحكم، واستمالة الناس لكسب التأييد السياسي، وكذلك وسيلة تصدّ لأبناء عمومته من العلويين الذين أخذوا يطالبون بالحكم⁽⁵⁾.

مضامينها:

اختلفت موضوعات الخطب في البصائر والذخائر باختلاف عصورها، وذلك لاختلاف الواقع الاجتماعي بين العصر الجاهلي والإسلامي، ومن ثمّ تكون موضوعات الخطب وليدة بيئتها، من ذلك نجد أن الخطابة الجاهلية اختلفت موضوعاتها عن الخطابة الإسلامية بشكل تام بسبب التحول الكبير الذي جاء به الإسلام، فالخطابة الجاهلية تمسكت بوحدة الموضوع نتيجة لطبيعة الواقع الاجتماعي الذي كان يعيشه إنسان ذلك العصر من تمييز قبلي نتج عنه التناحر، والتنافر، والحث على مواجهة الخصوم، وقد رأينا ذلك في خطبة قبيصة بن مسعود الشيباني وهو يحرض قومه على القتال.

(1) المصدر نفسه، ص 67.

(2) الحاج حسن، حسين، أدب العرب في صدر الإسلام، مصدر سابق، ص 124.

(3) انظر: الصمد، واضح، أدب صدر الإسلام، ط 1، المؤسسة الجامعية، لبنان، 1994م، ص 149.

(4) انظر: خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، مصدر سابق، ص 149.

(5) انظر: أبو زيد، سامي يوسف، الأدب العباسي، مصدر سابق، ص 155.

أما الخطب الإسلامية، فقد تعددت موضوعاتها لتعدد أنواعها، ومناسبتها، والموقف الذي تتطلبه الخطبة نفسها، فالخطب الإسلامية تكون موضوعاتها دينية على سبيل العموم، أما من حيث الجزئيات فيمكن أن تقف الخطبة على مسميات أخرى تصب في قالب الدين، فالخطب الدينية المحضة اقتصر موضوعاتها على تعاليم الدين الإسلامي وفق مقتضيات الشريعة، وركزت موضوعاتها على الجانب العقائدي والعبادات، كما ركزت الخطب الوعظية في موضوعاتها على جانب الزهد، كالتذكير بالموت ولقاء الله عز وجل.

فأبرز ما تتضمنه الخطب الدينية من موضوعات هي الدعوى إلى توحيد الله والدعوى للإسلام، والوعظ والإرشاد، كما تتضمن شرحاً لتعاليم الإسلام ومبادئه ومقوماته الأساسية من العقائد والعبادات، وتعالج بعض القضايا الدينية التي لم يرد فيها نص صريح من الكتاب أو السنة⁽¹⁾.

ومن جميل ما ذكره الفخوري من موضوعات للخطابة الإسلامية أنه قال: "كانت الخطابة الإسلامية خطابة دين جديد يتوجه إلى خطابة دفاعية تدحض آراء الخصوم، وترد على كل معاند مكابر"⁽²⁾.

وذكر شوقي ضيف أن للخطابة الإسلامية موضوعاً واحداً يجول فيه الخطيب ويصوّل، إذ يحدث الناس واعظاً، أو يعرض عليهم حدثاً ذا موضوع محدد، تلم بأطرافه وتفصيله⁽³⁾، ويتضح من ذلك كله أن موضوع الخطابة يكون حيناً دينياً يدعم الدعوة وينبذ الكفر والشرك، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وحيناً سياسياً يعالج أمور الدولة الناشئة ومشكلاتها وتوضيح سياستها⁽⁴⁾.

رابعاً: التوقيعات

قبل الشروع بالحديث عن تعريف التوقيعات، وأنواعها، ومصادرها وموضوعاتها يجب أن نبين أصالة هذا الفن العريق من فنون الأدب العربي من وجهة نظر العلماء والباحثين حول النشأة البيئية لهذا الفن. أهى عربية خالصة أم هي منقولة عن الفارسية، فللعلماء قولان:

(1) انظر: مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، مصدر سابق، ص332-333.

(2) انظر: الفخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مصدر سابق، ص337.

(3) ضيف، شوقي، العصر الإسلامي، ط7، مصدر سابق، ص114.

(4) انظر: الهادي، صلاح الدين، الأدب في عصر النبوة والراشدين، مصدر سابق، ص169.

أما شوقي ضيف فقد ذهب إلى القول بالأصل الفارسي، حيث قال: "هي عبارات موجزة بليغة، تعودَ ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقعوا بها على ما تقدّم إليهم من تظلمات الأفراد والرعيّة وشكواهم، وحاكاهم خلفاء بني العباس ووزراؤهم في هذا الصنيع"⁽¹⁾.

أما صاحباً كتاب جمهرة توقيعات العرب فلم يجعل التوقيعات مقصورة على العرب فحسب، بل ذهباً إلى أن التوقيعات ضربٌ من التعبير الإنساني العام، تعاطته أمم مختلفة منذ أزمنة سحيقة، فقد عرفت هذا اللون من الأدب شعوب العالم القديم كالفرس واليونان والهنود والصينيين وغيرهم، فكان عظماءهم يعلقون في أسافل الرسائل المرفوعة إليهم أو على ظهورها أو بين سطورها، تعليقات موجزة متضمنة ردّاً مناسباً على ما اشتملت عليه كلّ واحدة من هذه الرسائل، وليس عجباً أن تحتضن المصادر العربية قدراً صالحاً مما سقط من يد الدهر من توقيعات هذه الأجناس وليس الفرس على وجه خاص، بسبب ما كان منعقداً بين العرب والفرس من صلات حضارية واقتصادية وسياسية وثقافية، وقد ضربت جذور هذه العلاقات في الأرض قوة بعد اعتناق الإيرانيون الإسلام، وأتقنوا العربية، وتعرّب كثيرٌ منهم⁽²⁾.

كما شهد العصر العباسي حضوراً فارسياً مدوياً في مختلف صُعد الحياة بعد ازدياد نفوذ العناصر الفارسيّة المسلمة في الدولة العباسيّة، فلا يمكن إنكار مدى التطوّر الذي أدخله الكتاب الفرس على فن التوقيعات، ولم تقتصر توقيعاتهم على المناحي الموضوعية فحسب، بل تعدّى إلى المناحي الأسلوبية⁽³⁾.

أما القول الثاني فقد ذهب بعروبة التوقيعات، ومن الذين قالوا بذلك الحوفي الذي قال بنشأتها العربية معتمداً على دليلين، وهما: أن العرب عرفوا التوقيعات، ومارسوها في أحسن صورها، قبل أن يتصلوا بالفرس ويحاكوهم، وقد مُثل لتوقيعاتهم منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى آخر الدولة الأموية، إذ كانوا بمعزل عن أدب الفرس، وثقافتهم، وليس هناك فرق بين توقيعاتهم هذه وتوقيعاتهم في العصر العباسي بعد أن امتزجوا بأدب الفرس وثقافتهم.

(1) انظر: ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ط6، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص489.

(2) انظر: الدروبي، محمد محمود، وجرار، صلاح محمد، جمهرة توقيعات العرب، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2001م، ج1، ص5.

(3) انظر: الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنيّة في العصر العباسي، مصدر سابق، ص70.

وثانيهما: أن التوقيعات قائمة على ما يلائم الفطرة العربية، وذلك من خلال بعض خصائصها الفنية كميلها إلى الإيجاز، والمقدرة على البيان، وسرعة خاطرة، وحضور بديهية⁽¹⁾.

وذهب الفخوري إلى القول نفسه بأن التوقيعات ظهرت في عهد الخلفاء الراشدين وازدهرت في عهد بني أمية⁽²⁾، وإن التوقيعات بدأت تلوح في الأفق مع الخلافة الراشدة، وبالتحديد في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولعل السبب الذي حال دون وجود هذا الفن قبل ذلك، هو أن العرب أمّة أميّة شاعت القراءة فيها بعد ظهور الإسلام، ولم تنتشر بينهم إلا بعد الخلافة الراشدة⁽³⁾.

ومن القائلين بعروبيتها صاحب بلاغة الكتاب، لأنها من ضرورات الملك واستبحار العمران، فضلاً عن طابعها الموجز الذي هو من سمات الأساليب السامية لا الآرية المطبّبة، والأمثال الجاهلية المأثورة تنطق بهذا، وتؤيد أصالتها العربية، أليست هذه الأمثال ضرباً من "التوقيعات" ولم تكن محبّرة⁽⁴⁾، وبعد عرض الأدلة لكل من الفريقين تراءى للناظر، أنه يمكن القول إن التوقيعات نشأت نشأة عربية صرفة، لكن هذا لا يعني أنها لم تتأثر بالموروث الحافل من التوقيعات التي خلقها ملوك الفرس الساسانيون⁽⁵⁾.

تعريفها:

التوقيع في الكتاب، هو إلحاق شيء فيه⁽⁶⁾. والتوقيع: ما يوقع في الكتاب، وهو إلحاق شيء بعد الفراغ منه لمن رُفع إليه كالسلطان ونحوه من ولاية الأمر، كما إذا رفعت إلى السلطان أو الوالي شكاة، فكتبت تحت الكتاب، أو على ظهره: ينظر في أمر هذا، ويستوفي لهذا حقه⁽⁷⁾، والتوقيعات جمع توقيع، وهو تعليق الخليفة أو الأمير أو الوزير بما يراه، على ما

(1) انظر: الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، ط5، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص397.

(2) انظر: الفخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، مصدر سابق، ص371.

(3) انظر: منّاخ، هاشم، وياسين، مأمون، النثر في العصر العباسي، دار الفكر، ط1، بيروت، 1999م، ص213.

(4) حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مصدر سابق، ص97.

(5) انظر: الدروبي، محمد محمود، مواقف الدارسين العرب المعاصرين من نشأة التوقيعات وعروبيتها، مجلة كلية الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الخامس والعشرون، 2002م، ص491-492.

(6) الفراهيدي، خليل بن أحمد، ت 170هـ، كتاب العين، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، مج4، ص392.

(7) انظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، ت 711هـ، لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج15، ص460، وانظر: الزبيدي، محمد مرتضى بن محمد الحسيني، ت 1205هـ، تاج العروس من جواهر القاموس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، ج21، ص192.

يقدم إليه من الكتب في جوانب سؤال، أو شكوى حال، أو طلب نوال، بعبارة موجزة تؤثر عنه تجمع بين القوة والجمال، وقد تكون أحياناً آية قرآنية، أو حكمة أو مثلاً سائراً، وقد كانت التوقيعات معروفة في العصر الأموي، بيد أن شهرتها بخلفاء العصر ووزرائهم⁽¹⁾ وهو كتابة على حواشي الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، والتحدث في المظالم، وهو أمر جليل ومنصب حفيل⁽²⁾. والتوقيعات مشتقة في اللغة من التوقيع الذي هو بمعنى التأثير، يقال وقع الدبرُ ظهر البعير إذا أثر فيه، وكذلك الموقع (كتاب التوقيع) يؤثر في الخطاب أو الكتاب الذي كتب فيه حساً ومعنى، وقيل: إن التوقيع إيقاع الشيء المكتوب في الخطاب أو الطلب، فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه، واشتقاقه من قولهم: وقعت الحديد بالميقعة، وهي المطرقة: إذا ضربتها، وحماراً موقع الظهر: إذ أصابته في ظهره دبرة. والوقية: نقرة في صخرة يجتمع فيها الماء وجمعها وقائع⁽³⁾.

ويطلق التوقيع في اللغة على معانٍ مختلفة، لعل من أشدها مساً بالمعنى الاصطلاحي: الإصابة وخفة التأثير، وتبدو صلة هذين المعنيين اللغويين بالمعنى الاصطلاحي واضحة تماماً فالتوقيع ينضم على رد موجز يضع الأمور في نصابها الصحيح، إذ يتوخى الإصابة من هذه الجهة، كما يترك من جهة أخرى أثراً عند صاحب الرسالة الموقع عليها سواء كان هذا الأثر خفيفاً أم شديداً، سلبياً أم إيجابياً، فالمهم أن صاحب الرسالة يناله أثر جراء التوقيع، مع إغفاء عن طبيعة هذا الأثر وتبعاته هذا من وجهة لغوية، وأما من وجهة اصطلاحية، فإن التوقيع يحمل معاني متباينة، فهو يطلق تارةً ليدل على المرسوم الذي يصدره الحاكم، وهو بهذا يقترب من مصطلح "التقليد" الذي أشاع المماليك استعماله في نظمهم الإدارية⁽⁴⁾، وإن معظم التعريفات اجتمعت على أن التوقيع تعليق موجز يُكتب أسفل الرسائل الواردة إلى الديوان، أو على ظهرها، متضمناً رداً مناسباً على مضمون كل واحدة من هذه الرسائل⁽⁵⁾.

وما سمّاه العرب بالتوقيعات، وهي من أبلغ الكلام، وأوجزه لفظاً، وأوسع معنى، وأقواه مغزى، وهي عبارات موجزة كان يكتبها الخليفة أو الوالي أو عمّالهما في أسفل الشكاوي

-
- (1) الغول، فائز علي، والكيالي عبد الرحمن، القريب في تاريخ الأدب، مصدر سابق، ص49.
 - (2) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت 821هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ويوسف علي الطويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ج1، ص110.
 - (3) الدخيل، حمد بن ناصر، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج13، ع22، 1422هـ، ص1093.
 - (4) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص68.
 - (5) انظر: الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص69.

للمظالم، أو المطالب والحاجات التي كانت ترفع إليهم بما يتضمن الرأي فيها، كأن يكتب وزير في غرض ما، فيكتب الرئيس عنه بما يفيد وجوب الفحص أو قضاء المآرب⁽¹⁾ وهي ردّ على كتاب أو ربما على قصة أو رقعة مرفوعة في شكوى أو مشكلة أو طلب عون أو رأي، وقد يكون التوقيع ابتداءً لا ردّاً، ثم إن التوقيع يكتب على الكتاب المرفوع نفسه، وغالباً ما يكون أسفل الكتاب أو على ظهره⁽²⁾.

ومن ذلك نجد أن للتوقيع معاني كثيرة، ولعله بهذا المعنى الاصطلاحي، مأخوذ من وقعت الأبل أي اطمأنت بالأرض بعد الرمي، لأن الكاتب الموقع يطمئن على تعريف الأمر وقضائه فيه، أو من وقع ظنه على الشيء أي قدره وأنزله، لأن الموقع يكتب رأيه الذي تدبر فيه، أو من التوقيع وهو الرأي القريب والإصابة، لأن الموقع يفصل في الأمر من أقرب طريق، أو من التوقيع، وهو إصابة المطر بعض الأرض وأخطاؤه بعضها، أو أنبات بعضها دون بعض⁽³⁾.

أنواعها:

التوقيع تعليق بردٍ موجز يقوم به الموقع لما يراه مناسباً لموضوع الرسالة، فيكون الردّ بحسب مقتضيات الأمر، وبما يناسب الحالة . من ذلك نجد أن التوقيعات أخذت أشكالاً عدة جاءت على ما يراه الموقع مناسباً، فمنها ما وقع بآية قرآنية، أو بيت من الشعر، أو مثل سائر، أو حكمة، أو بغير ذلك من الكلام المنتثر الذي يجمع بين القوة والجمال، حتى يكون له وقع في نفس القارئ أو السامع، وهذه الأنواع هي:

أولاً: التوقيع بآية قرآنية:

وردت ثلاثة توقيعات بآيات قرآنية كريمة في البصائر والذخائر، حيث جاءت مناسبة للموضوع الذي تضمنته رسالة الكاتب. فمن ذلك ما كتبه صاحب جيش عبد الملك بن مروان يخبره بكثرة من لقي من جيش الروم، فوقع إليه: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]⁽⁴⁾، ويبدو أن توقيع الخليفة عبد الملك بن مروان جاء مناسباً ومطابقاً لمضمون كتاب صاحب الجيش على أن النصر من عند الله، وليس بقلّة جيشكم وكثرة عدوكم.

(1) انظر: الفاخوري، حنّا، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، مصدر سابق، ص 397-398.

(2) انظر: المقداد، محمود، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ط1، دار الفكر، دمشق، 1993م، ص 396.

(3) الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، مصدر سابق، ص 395.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص 110.

وقد وقع المنصور في رقعة رجل ذكر أن أمير المؤمنين أمر بأرزاق وأن الفضل أبطأ بها: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۚ﴾ [فاطر: ٢]^(١)، وعلى هذا النحو وقع معاوية بن أبي سفيان على كتاب عمرو بن العاص حينما سأله أن يعطي عبد الله بن كريب نهر معقل: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠٢]^(٢).

والتوقيع بألفاظ القرآن الكريم استعمله العلماء العقلاء، وهو حسن في الجد من الأمور، محظور في المزح والمطايبة^(٣).

ثانياً: التوقيع المتضمن بيتاً شعرياً:

لم يرد في كتاب البصائر والذخائر من التوقيعات المتضمنة للشعر سوى توقيع واحد وقع به علي بن عيسى إلى هشام العامل منقصاً من أدبه وأخلاقه ومروءته، فكتب: "قلْتُك في نفسك، وزرِّيَ منظرُك، ودقةُ حسبك، وخمولُ نسبك: وسقوطُ أدبك، وموهنُ قوتك، واختلالُ مروءتك، وضعفُ نيَّتِك، يمنعُ من تقويمك والانتصاف منك، ويحجُبُ من تناولك بالعقوبة، فقد نجاك لؤمك، واطلقتك مقادريك، فأنت كما قال الشاعر: [المتقارب]

نجا بك لؤمك منجى الذباب حمته مقاديره أن ينالا

ولست أَرْضَاك لي عبداً، ولو كُنْتُه لرأيتُ عتقك احتقاراً لقدرك، واستصغاراً لأمرِك"^(٤).

ثالثاً: التوقيع بالمثل السائر: من ذلك ما وقع به المعتز تحت دعاء بإطالة البقاء: "كفى بالانتهاه قصراً"^(٥).

رابعاً: التوقيع بالحكمة: ومما جاء في هذا المعنى توقيع لجعفر البرمكي الذي يعدّ أبرع موقع، فقد كتب عمرو بن صعدة إلى حمزة الشاري كتاباً فقلله، فوقع جعفر على ظهر الكتاب: "إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيًّا"^(٦)، ووقع الفضل إلى مستميج: "كن في الباب يأتك الجواب"^(٧).

خامساً: وقد يكون التوقيع نثراً مولداً، كما في توقيع محمد بن عبد الله طاهر في قصة غلام أخذ مع فتیان في صحراء، فوقع: "ما السبيلُ على فتية خرجوا لمتنزههم، يقضون

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١١٦-١١٧.

(٣) انظر: الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ت ٤٢٩هـ، تحفة الوزراء، تحقيق: حبيب علي الراوي، وابتناسم مرهون الصقار، د.ط، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م، ص ١٤٨.

(٤) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج ٥، ص ٦١.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٦.

(٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٨.

(٧) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٣٢.

أوطارهم على قدر أخطارهم ولعل الغلام ابن أحدهم أو قرابة بعضهم⁽¹⁾، ووقع المنصور علي رقعة رجل يسأله فيها بناء مسجد في محلته: "من شرائط الساعة كثرة المساجد، فزد في خطاك تزد في الثواب"⁽²⁾، وقد بعث سهل بن هارون إلى الحسن بن سهل كتاباً عمله في مدح البخل، واستماحه فيه، فوقع الحسن: "قد مدحت ما ذم الله، وحسنت ما قبح الله، وما يقوم بفساد معنك صلاح لفظك، وقد جعلنا ثوابك قبول قولك، فما نعطيك شيئاً"⁽³⁾ وهذا النوع من أنواع التوقيعات هو الغالب عليها.

مصادرها:

إن التوقيعات التي وردت في كتاب البصائر والذخائر متعددة المصادر، وقد نسب أبو حيان التوحيدي كل توقيع إلى كاتبه، لذلك أصبح من اليسير معرفة مصدر التوقيع، فالتوقيعات بصورتها العامة نشأت مع نشأة الرسائل الفنية وارتبطت بالكتابة ارتباطاً وثيقاً، فيما أن الراجح على الكتابة الفنية أنها نشأت نشأة إسلامية فلا شك أن التوقيعات نشأتها إسلامية أيضاً، لأن التوقيع ما هو إلا تعليق على رسالة ما، من ذلك يمكن أن تقسم مصادر التوقيعات في هذا الكتاب إلى:

أولاً: عصر صدر الإسلام:

لم يرد في كتاب البصائر والذخائر سوى توقيع واحد يعود لهذا العصر، وهو توقيع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى ابنه الحسن، يقول فيه: "رأي الشيخ خير من مشهد الغلام"⁽⁴⁾.

ثانياً: العصر الأموي:

تعدّ التوقيعات في العصر الأموي امتداداً طبيعياً للتوقيعات في عصر صدر الإسلام، بعد أن عُرِفَت واستعملت، وغدت في العصر الذي نتحدث عنه فناً أدبياً، حيث اعتاد كل خليفة أموي أن يوقع على الرسائل التي ترد إليه بعد أن يطلع على مضمونها⁽⁵⁾، فمن توقيعات هذا العصر، توقيع معاوية بن أبي سفيان على كتاب عمرو بن العاص: (قد سألتها قوم من قبلكم ثم

(1) المصدر نفسه، ج2، ص16.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص18.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص231، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج1، ص55.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج9، ص116، وانظر: الدوبي، محمد، وصلاح جرار، جمهرة توقيعات العرب، مصدر سابق، ج1، ص30.

(5) الدخيل، محمد ناصر، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، مجلة جامعة أم القرى، مصدر سابق، ص1102.

أصبحوا بها كافرين⁽¹⁾ ومن التوقيعات في العصر نفسه، توقيع لعبد الملك بن مروان: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم)⁽²⁾.

ثالثاً: العصر العباسي:

إن أكثر التوقيعات التي أوردها التوحيدي في كتاب البصائر والذخائر ترجع إلى العصر العباسي؛ لأن العصر العباسي اشتهر بهذا الفن أكثر مما سبقه من العصور، حيث صدرت هذه التوقيعات من رجال السياسة من خلفاء ووزراء وولاة وقواد الجيوش. فقد وقع المنصور على رقعة رجل سألته: "أتاك الله سعة تصون عرضك وتقي دينك"⁽³⁾. ووقع أيضاً: "لقد أمنت كل ذنب، وشكرت كل بريء، وجبرت كل ولي"⁽⁴⁾.

ووقع طاهر بن الحسين على رقعة رجل: "ما شاء الله كان، فوقع الرجل في أسفلها، إن الله شاء المعروف، فلما قرأها طاهر وصله"⁽⁵⁾. ووقع الفيض في وزارته على ظهر رقعة معتذر "التوبة للمذنب كالدواء للمريض، فإن صحت توبته كمل الله تعالى شفاءه، وإن فسدت نيته أعاد الله تعالى داءه"⁽⁶⁾.

موضوعاتها:

أولاً: الرد على المتظلمين والأخذ بمقتضيات العدل:

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن إنصاف المتظلمين وإزالة شكاياتهم ظلّ من أهم الموضوعات التي عبّرت عنها التوقيعات العباسية حتى مطلع القرن الرابع الهجري، وقد كان الخلفاء أنفسهم يباشرون أحياناً النظر في المظالم، فتعرض رقاع بين أيديهم، فيوقعون على كل رقعة بما يناسبها، وكان كاتب التوقيع يوقع ما يُملى عليه، فيقوم بكتابته أسفل رقعة الشكوى نفسها أو على ظهرها، أو حيثما وجد فراغاً مناسباً يضع فيه التوقيع. وعلى الشاكلة نفسها كانت التوقيعات بين يدي كُبراء الدولة كالوزراء والقضاة وقواد الجيش والولاة ورؤساء الدواوين، وكان بعض أفراد هذه الطوائف يباشرون التعليق على الرقعة المرفوعة إليه بخط يده كما حكى

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص116-117.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص110.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص109.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص26.

(5) المصدر نفسه، ج7، ص123، وانظر: الدروبي، محمد، وصلاح جرّار، جمهرة توقيعات العرب، مصدر سابق، ج1، ص64.

(6) المصدر نفسه، ج6، ص221.

الجهشياري عن جعفر بن يحيى البرمكي على سبيل المثال، بيد أن كثرة المتظلمين وازدياد أعداد الظلمات جعل ترتيب نفر من الكتاب توكل إليهم مهمة كتابة التوقيعات⁽¹⁾.

ومن شاكلة هذه التوقيعات ما وقع به ذو اليمينين يوماً من الأيام للمظالم، فعرض عليه رقعة رجل ادعى أجراً على رجل آخر وأحال المدعي على رجل آخر، فوقع: "يرجع إلى الفصل الثاني من كتاب "كليلة ودمنة"، فرجع إلى ذلك الفصل فوجد فيه: "أجرة الأجير على من استأجره، فعمل بذلك"⁽²⁾ ولا شك إن اختصاص التوقيعات بتحقيق هذا الغرض، مما يوثق عرى الأمن في المجتمع، فينطلق الناس مطمئنين إلى رسوخ قواعد العدل غير أبهين بقوى الظلم، إذ كان ثمة من يرد الظالمين ويقف بوجوههم لإنصاف أهل الحق⁽³⁾ ورفع إلى كسرى: خذلت ثم سميت فلاناً مخذولاً، فوقع: "لأنه تظلم منا إلى الله تعالى قبل أن يتظلم إلينا"⁽⁴⁾.

ثانياً: الرد على المتسطفين:

وأحق الناس بالعفو من كان أقدر على العقوبة⁽⁵⁾، ومثلما كان إمضاء العقوبة لازماً لتحقيق العدالة، كان درء العقوبة لازماً، إن كان ثمة ما يدعو إلى درئها، ولو على نحو ما⁽⁶⁾ ومن التوقيعات التي جاءت بهذا الشأن توقيع يحيى بن خالد البرمكي في كتاب ابن سيابة يستعطفه، وقد حجب ومنع رزقاً كان له، فوقع: "قد عفونا عن الخائف، والحاكم لنفسه ببراعته، وأمرنا له بصلة تنير ظلمته، وتؤنس وحشته، ووهبنا ماضيه لمستقبله، وسالفه لمستأنفه"⁽⁷⁾. ومن ذلك نجد أن هكذا أحكام تصدر من أناس هم ليسوا بقضاة بالمعنى المفهوم، لكن أحكامهم لا تقل في دقتها عن أحكام القضاة أنفسهم، وفي هذا دليل على تلون الروافد التي يأخذ الخلفاء والوزراء بها أنفسهم مع اتساع المهام التي كانت تقع على الخليفة ووزيره⁽⁸⁾. ووقع على بن عيسى إلى ابن مرانة العطار في قصة يسأله أن يكلم أمير المؤمنين المقتدر بالله

(1) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص 73-74.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 1، ص 70.

(3) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص 74-75.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 6، ص 221.

(5) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل، تحفة الوزراء، مصدر سابق، ص 149.

(6) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص 79.

(7) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 5، ص 125-126، وانظر: الدروبي، محمد، وصلاح جرار، جمهرة توقيعات العرب، مصدر سابق، ج 2، ص 279.

(8) انظر: الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص 79-80.

حتى يصفح عنه: "من تحقق بالوزراء، وجالس الأمراء، وداس بُسْط الخلفاء، وماتل الكبراء، وأمر ونهى في مجالس الرؤساء، بعقل يسير، ورأي حقير، وأدب صغير، كان خليقا بالنكبة، وحريراً بالمصيبة، وجديراً بالمحنة، وأنا أتكلّم إذا حضرني الكلام فيك بما يقربني إلى الله تعالى⁽¹⁾.

ثالثاً: الرد على المستعطين:

ومن الموضوعات التي تضمنتها التوقيعات العربية طلبُ يد العون إلى من أصابتهُم الفاقة، وذلك لسدّ حوائجهم أو طلب الاستزادة في رزقهم، فالموقع هو الذي ينظر فيما إذا كان المستعطي مستحقاً لذلك أو غير مستحق، فأحياناً تُجابه الطلبات بالرفض المباشر، ومرة يتسنى فيها النظر لحين التحقق من الأمر، وتارة تلقى قبولاً مباشراً.

فمن التوقيعات التي جوبهت بالرفض توقيع المنصور على رقعة رجل سألته شيئاً: "أتاك الله سعة تصون عرضك وتقي دينك"⁽²⁾. ومن التوقيعات التي ترفض العطايا لطالبيها توقيع ولي الدولة على كتاب النعمان بن عبد الله عندما طلب منه الاستزادة في الرزق، فوقع على ظهر الكتاب "قد أعجبت بنفسك فلست تعرفها، فإن أحببت أن أعرفكها عرفتك"⁽³⁾. ومن التوقيعات التي تسنى فيها النظر توقيع العباس بن الحسن الوزير في كتاب جماعة يستزيدونه "ما حالكم حالٌ مستزيد، ولا فوق ما أنا عليه لكم مزيد، فإن تكن الاستزادة من مالٍ فهو موفورٌ عليكم، وإن تكن من رأي فالأعمال لكم، ولي اسمها وعلي عبئها وثقل تدبيرها، وأقول لعلي بن محمد من بينكم الذي ما يطيق نفسه تذلاً واعتدالاً: أمن بؤس كانت هذه الاستزادة أم من بطر النعمة ودلال الترفه؟ ولي في أمر جماعتكم نظر ينكشف عن قريب، وحسبي وحسبكم الله ونعم الحسيب"⁽⁴⁾ وقد تبين أن الدولة العباسية كانت تكتب التوقيعات في توزيع الصلات والعطايا على مستحقيها وليس على كل طالب لها، بل كانت تخرج تلك التوقيعات أحياناً بدعوى المستمحين وطلاب الحاجات إلى التريث والتصبر والملازمة حتى يتسنى النظر في مطالبهم، وهذا ما يصادفه الناظر في توقيع الفضل بن سهل إلى مستمحي: "كن في

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج5، ص53، وانظر: الدروبي محمد، صلاح جرّار،

جمهرة توقيعات العرب، مصدر سابق، ج2، ص364.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص109، وانظر: الدروبي محمد محمود وصلاح

جرّار، جمهرة توقيعات العرب، مصدر سابق، ج1، ص63.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص134.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص134، وأنظر: الدروبي، محمد محمود وصلاح جرّار، جمهرة توقيعات العرب، مصدر سابق، ج2، ص345-346.

الباب يأتك الجواب"⁽¹⁾، وبعض التوقيعات تلقى قبولاً مباشراً من الخليفة، فقد رفع الواقدي إلى المأمون رقعة يذكر فيها ما عليه من الدين وقلة الصبر، فوقع المأمون في ظهر رقعته: "أنت رجل فيك خلطان: السخاء والحياء، فأما السخاء، فهو الذي أطلق ما في يدك، وأما الحياء فبلغ بك ما أنت عليه، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم، فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك، وإن كنا لم نصب إرادتك فتماسك على نفسك، وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق الزهري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال للزبير: يا زبير، إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش، وينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم فمن كثر كثر له، ومن قل قل له. قال الواقدي: وكنت أنسيْتُ هذا الحديث فكانت مذاكرته إياي أعجب إليَّ من صلته"⁽²⁾.

رابعاً: الرد على الولاة والعمال:

أخذت هذه التوقيعات تشمل جوانب من: التهديد، والتوبيخ، والتهكم لمن أساء السلوك من الولاة والعمال، ومن ذلك توقيع ذي الرياستين إلى طاهر بن الحسين في أمر أنكره عليه: "يا نصف إنسان، والله لئن أمرتُ لأنفذنّ، ولئن أنفذت لأبرمنّ، ولئن أبرمتُ لأبألغنّ"⁽³⁾، ووقع على بن عيسى أيضاً: "وليتك من عملي جليلاً، وكنت حقيراً قليلاً، ومهيناً ذليلاً، حصيراً كيلاً، فانصرف عليك اللعن طويلاً"⁽⁴⁾، وقد جاءت بعض التوقيعات في الرد على الولاة بالعزل وذلك لوجود تقصير واضح من الوالي في إدارة الشؤون المؤكل بها، من ذلك ما كتبه صاحب أرمينية إلى المنصور: إن الجند قد شغبوا عليّ وطلبوا أرزاقهم وكسروا أقفال بيت المال وانتهبوه، فعزله ووقع في جوابه: "لو عدلت لم يشغبوا، ولو قويت لم يتوثبوا"⁽⁵⁾.

وعلى النحو نفسه من التوبيخ، والتهديد، والتهكم على العمال الذين أساءوا السلوك، وقع ابن يزداد في وزارته إلى عامل اعتدّ بباطل: "ما يبين لنا منك حسن أثر، ولا يأتينا عنك سارّ خبر، وأنت مع ذا تمدح نفسك، وتصف كفايتك، والتصفح لأفعالك يكذبك، والتتبع لأثارك يرد قولك، وهذا الفعل إن اتكلت عليه وأخلدت إليه، أعلقك الذم وألحقك العجز، فليكن رائدُ قولك

(1) انظر: الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص 83، وانظر: التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 6، ص 232.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 6، ص 240-241.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 131.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 5، ص 54.

(5) المصدر نفسه، ج 9، ص 109.

مصدقاً لموجود فعلك، إن شاء الله⁽¹⁾، وكذلك وقع ابن الزيات إلى عامل له: "توهمتكَ شهماً كافياً، فوجدتك رسماً عافياً، لا محامياً، ولا وافياً"⁽²⁾ وأحياناً يأتي التوقيع بالعفو عن المسيء أو المقصر، ومن ذلك توقيع أبي صالح بن يزداد إلى عامل: "قد تجاوزت لك، وإن عُدت أعدت إليك ما صرفته عنك"⁽³⁾.

وقد أخذت التوقيعات إلى الولاية والعمال سمناً آخرأ غير التهديد بالعقوبة أو العزل أو الشتم أحياناً، بل جاءت بموضوعات أخرى كالمدح والثناء، كما في توقيع الفضل بن سهل وزير المأمون إلى عامل له: "نعم الشفيع في بقاء النعمة عليك حسن سيرتك، واعتماد الصيانة والعفاف، قدم على هذه الطريقة تبق لك النعمة، إن شاء الله تعالى"⁽⁴⁾، وأخرى بالنصح والإرشاد والتحذير من اتباع الهوى، كما في توقيع الفضل بن سهل أيضاً: "استدم بالشكر بقاء النعمة، وبالطاعة علو المنزلة، وإياك أن يورطك هواك، فيما لا بقيا معه عليك، إن شاء الله تعالى"⁽⁵⁾، ووقع إلى عامل له أيضاً: "إني أئتمنتك على ديني، وأشركتك في أمانتي، ووضعك موضع الثقة، فقولك مقبولٌ وكتابك المعتمد عليه في تدبير أمور ناحيتك، فاعرف عظيم الخطر الذي أصبحت فيه، وأدأ أمانة الله عز وجل فيما أنت بسبيله، تسعد في العاجل والآجل، إن شاء الله تعالى"⁽⁶⁾.

ووقع ذو الرياستين أيضاً: "لا تجعلن توليتي إياك نظراً مني لك دون رجائي فيك والكفاية والغناء والنصيحة، فتزل بك قدم تورتك الندم"⁽⁷⁾.

خامساً: الرد على الشكاوى:

جاءت بعض التوقيعات رداً على شكاية رفعت للخليفة أو لمن يهمله الأمر، أو قد تكون رداً على إنكار بعض الناس على بعض تصرفات الخليفة نفسه، والتي قد يرونها في غير محلها، فمن التوقيعات التي جاءت في البصائر والذخائر بهذا الصدد توقيع أنو شروان على شكاية رفعت له أن عامل الأهواز قد جنى من المال ما يزيد على الواجب، وأن ذلك يجحف بالرعايا، فوقع: "يردُّ هذا المال على هؤلاء الضعفاء، فإن تكثير الملك لماله بظلم رعيته

(1) المصدر نفسه، ج6، ص204.

(2) المصدر نفسه، ج8، ص26-27.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص158، وانظر: الدروبي، محمد محمود، وصلاح جرار، جمهرة توقيعات العرب، مصدر سابق، ج2، ص332-333.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص309.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص309.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص127، وانظر: الدروبي، محمد محمود، وصلاح جرار، جمهرة توقيعات العرب، المصدر سابق، ج2، ص310.

(7) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص127.

بمنزلة من يحصّن سطوحه بما اقتلعه من قواعد بنيانه⁽¹⁾ ورفع إليه أن الأمر كان خرج باختيار رجل للشرطة، وقد سُمّي بذلك فلان، فوقع: "يحتاج لهذا العمل إلى رجل في طباعه البغضة للأشرار، واستقصاء أصول الأموال، والغلظة على الظلمة، والرقّة على الضعفاء، وهذا رجل يختار لغير هذا العمل"⁽²⁾.

وأخذت بعض الشكاوى جانباً آخر هي الشكاية من الملك إليه على ما يراه العامة من ملاحظات حول بعض تصرفات الملك، فقد رفع إلى أنو شروان أن العامة تؤنب الملك في تقديمه فلاناً وليس له شرف أصيل ولا نسب، فوقع: "اصطنعنا له نسب"⁽³⁾ وقد علق أبو حيان التوحيدي بكلام جميل حول اصطناع النسب فقال: هذا الذي قاله لطيف حلو، له وجه عريض في التأويل، وعليه حجة قوية في الجدل، وقد كان بعض أصحابنا يقول: الاصطناع لا يشرف الجوهر الخسيس، والإطراح لا يضع الجوهر النفيس، وسبيل الملك أن يكون كالناقد الذي ينفي الزائف ويقتني الجيد، فما انتكثت الدول وانتفضت الملل إلا بهذا التأويل الذي ينشئه هوى الملك في واحد بعد واحد، على أن لا نجد أن تكون النجاسة في بعض الخاملين، والفسالة في بعض المشرفين..."⁽⁴⁾.

ومن الشكاوى التي رفعت إنكاراً على الملك كسرى أن النصارى الذين بحضرة بابه يقرفون بالتجسس، فوقع لهم الملك: "من لم يظهر ذنبه لم تظهر منا عقوبة له"⁽⁵⁾ وكذلك أنكر على الملك من بعض الناس على إصغائه إلى أصحاب الأخبار، فوقع: "هؤلاء بمنزلة مداخل الضياء إلى البيت المظلم، وليس لقطع مواد النور مع الحاجة إليه وجه عند العقلاء"⁽⁶⁾.

سادساً: الرد على السجناء:

جاءت هذه التوقيعات رداً على رسائل أهل السجون الذين يطلبون إطلاق سراحهم من قبل ولاية الأمر لأجل الإنعام بالحرية؛ لأن من طبيعة الإنسان أنه يكره التقيد، ويبحث عن الفسحة والمكان الواسع، ولم يرد في كتاب البصائر والذخائر سوى توقيع واحد يخص هذا الموضوع، وهو توقيع أحمد بن أبي خالد لرجل، فوقع: "غررتنا بالله، فحبسناك الله"⁽⁷⁾ فالناظر

(1) المصدر نفسه، ج9، ص177.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص177-178.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص175.

(4) المصدر نفسه، ج9، ص175-176.

(5) المصدر نفسه، ج9، ص176.

(6) المصدر نفسه، ج9، ص176.

(7) المصدر نفسه، ج6، ص175، وانظر: الدروبي، محمد محمود، وصلاح جرار، جمهرة توقيعات العرب، ج2، ص319.

في معنى التوقيع يجد أن العدالة قد تحققت، وذلك لبيان السبب والغاية حتى لا يشعر المسجون بأنه مظلوم.

سابعاً: تصويب الخطأ واللعن:

يعد هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي عالجتها التوقيعات الفنية واعتنت بها، ولما لها من أهمية عند الوزراء وولاة الأمر يكون ردهم تقريباً وتوبيخاً في بعض الأحيان، ومن ذلك توقيع يحيى بن خالد البرمكي في رقعة رجل مليح الخط ردئ الكلام "الخط جسم روحه الكلام، ولا ينتفع بجسم لا روح فيه"⁽¹⁾ جعل البرمكي الكلام الجيد والمعبر أفضل من الخط الجميل الذي لا يحمل معنى، فالكلام الجيد بمنزلة الروح من الجسد.

ثامناً: الإخوانيات:

تناول كتاب البصائر والذخائر بعض التوقيعات الإخوانية التي تتم عن بعض المعاني، كالعتاب والدعاء وطلب التآني في الأمور، وأحياناً يتصل بعضها إلى الذم، ومن ذلك توقيع الوزير علي بن عيسى في عتاب شديد اللهجة إلى أحد عماله: "قد بلغت لك أقصى قرارك، وأنت لك غاية بغيتك وسامحتك مسامحة محاب لك، معني بك، وأنت مع ذلك تستقل كثير لي لك، وتستقبح حسني فيك، فكيف وأنت كما قال رؤبة:

كالحوث لا يكفيه شيء يلهمه يصبح ظمناً وفي البحر فمه

وإذا تأملت حقيقة أمرك علمت أنني عاملتك بما لا أوجب إليه غيرك، ولا أعامل بمثله سواك"⁽²⁾.

فجاء عتاب الوزير للعامل لأنه أنكر المعروف الذي أسداه له الوزير، لذلك وصفه بالدناءة وعدم القناعة، وأنه كالحوث الذي يعيش في البحر ويصبح ظمناً.

تاسعاً: التوجيهات السياسية والإدارية:

شملت بعض التوقيعات في كتاب البصائر والذخائر موضوعات سياسية وإدارية، وهي توجيهات لإدارة شؤون الحكم وإقامة السلطة العادلة على أساس المساواة بين أفراد المجتمع لضمان حقوقهم مع ما على الفرد من واجبات، حتى يتحقق الأمن والأمان، ولكي لا تعم الفوضى البلاد، لأن الإدارة تعكس صورة لسياسة الدولة تجاه مواطنيها، وهذه الإدارة من شأنها إقامة العدل والحكم بما أنزل الله عز وجل.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج8، ص52-53.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص150، وانظر: الدروبي، محمد محمود، وصلاح جرار، جمهرة توقيعات العرب، ج2، ص364.

ومن التوقعات الداعية إلى إقامة العدل والتأني وعدم الاستعجال، والنظر إلى الأمور قبل الحكم عليها، توقيع الفضل بن سهل "إن أسرع النيران التهاباً أسرعها خموداً، فتأن في أمرك إن شاء الله تعالى"(1).

وقد تضمنت هذه التوقيعات تحذيراً من الوقوع في الزلل الذي يورث الندم فيما يخص شؤون الرعية، كما في توقيع الفضل بن سهل أيضاً لأحد الولاة: "لا تجعل توليتي إليك نظراً مني دون رجائي فيك للكفاية والغناء والنصيحة، فتزل بك قدم تورثك الندم"(2).

خامساً: الوصايا

تعريفها:

الوصية لغة: أشارت المعاجم إلى التعريف اللغوي للوصية، ومن أبرزها "معجم لسان العرب" لابن منظور، حيث يقول: "وصي: أوصى الرجل، ووصاه: عهد إليه. وأوصيته إصاء بمعنى توصية.

والاسم الوصاة والوصاية والوصاية. والوصية أيضاً: ما أوصيت به. والوصي الذي يوصى له، وهو من الأضداد.

والوصي والموصي والموصى، والأنثى وصيٌّ، وجمعهما وجميعاً أوصياء، ومن العرب من لا يثني الوصي ولا يجمعه، ويقال: وصي بين الوصاية.

والوصية: ما أوصيت به، وسميت وصية لاتصالها بأمر الميت، وقيل لعلّي، عليه السلام: وصي، لاتصال نسبه وسببه وسمته بنسب سيدنا رسول الله ﷺ(3).

و(وصي) الواو والصاد والحرف المعتل أصل يدل على وصل شيء بشيء، ووصيت: الشيء: وصلته. ويقال: وطئنا أرضاً واصية، أي إن نبتها متصل قد امتلأت منه(4)، والاسم: الوصاة، والوصاية والوصية وهو الموصى به أيضاً ويوصيكم الله: أي يفرض عليكم، وتأتي الوصية في اللغة بمعنى العهد، يقال: أوصى الرجل ووصاه أي عهد إليه(5).

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج2، ص127، وانظر: الدروبي، محمد محمود، وصلاح جرار، جمهرة

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص127.

(3) ابن منظور، جمال الدين محمد، (ت: 711هـ/1311م)، لسان العرب، مصدر سابق، ج15، ص461، مادة: وصي.

(4) الرازي، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، ت 395هـ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دط، دار الفكر، دن، 1979م، ج6، ص116.

(5) الفيروز ابادي، مجد الدين ابو طاهر محمد بن يعقوب، ت817هـ، القاموس المحيط، مصدر سابق، ص1343.

ووصاه: بمعنى اوصاه له بشيء، وتواصوا، أي: أوصى بعضهم بعضاً⁽¹⁾.

الوصية اصطلاحاً:

أما الوصية في مفهومها الاصطلاحي، فقد عرفها عدد من الدارسين والباحثين في فنون النثر العربي، ولعل من أدق التعريفات وأقربها إلى إصابة المعنى تعريف الفاخوري لها، فقال: "التوصيات هي عصارة حكمة حياة، وهي الخبرة مسكوكة سكا في أسطر تزخرف بالمعاني الجليلة، والحنكة، والدراية. والهدوء الذي تسيطر عليه في أغلب الأحيان رهبة الموت، وحقيقة الآخرة، أو أعباء المسؤولية أو الروح الدينية العميقة⁽²⁾."

وقد عرفها حسين الحاج حسن على أنها: "خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤونته وشجونه، وآخر ما يقدمه في حياته أو نهايتها، بعد أن اختبر الحياة بكل ما فيها من حلو ومر، وهناء وشقاء، وطيب وخبيث، فيوصي أبناءه وأهله بالأمور التي يرى فيها مخايل السعادة والرفعة وسواء السبيل"⁽³⁾. وعدّ بعض الباحثين الوصية قريبة من الخطابة أو هي باب من أبوابها، فمنهم محمود رزق الذي قال عنها: "هي لون نثري قريب من الخطابة إلا أنها أضيق حدوداً وأقل مساحة منها، فهي لا تقدم إلا لمن يهتم الموصي بأمرهم كالأب لابنه والأم لابنتها أو الشيخ لعشيرته، وما شابه ذلك، ويعتمد المقدم للوصية على خبرة طويلة هي محصلة مجموعة من التجارب التي خاضها في حياته يقدمها لمن يوصيه حتى ينهل ويسترشد بما فيها، وهذه الوصية غالباً ما تسدى في أوقات السفر والزواج، والإحساس بـ"دنو الأجل"⁽⁴⁾.

فالوصية باب من أبواب الخطب إلا أن الخطب تقال في الحفل المجتمع، بينما الوصية تقال للفرد⁽⁵⁾. والوصية فن من الفنون الأدبية القديمة اعتمدها الحكام منهجاً للحكم بعد موتهم. أو هي بمثابة النصح والإرشاد في عمل ما. وهي على نوعين: من حيث التنفيذ: نوع ينفذ في حياة الموصي، والآخر ينفذ بعد موته⁽⁶⁾.

(1) الفارابي، أبو إبراهيم، ديوان الأدب، تحقيق: عادل عبد الجبار الشاطي، د.ط، د.م، 2003م، ص 673.

(2) الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مصدر سابق، ص 375.

(3) الحاج حسن، حسين، أدب العرب في صدر الإسلام، مصدر سابق، ص 133.

(4) حامد، محمد رزق، الدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص 227.

(5) انظر: فروخ، عمر، تاريخ الدب العربي، ط 5، بيروت، دار العلم للملايين، 1984م، ج 1، ص 90.

(6) انظر: السالم، عبد الله محمد، النثر الفني في مصر وبلاد الشام في القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 1993م، ص 96.

مصادرها

وردت ثلاث وصايا في كتاب "البصائر والذخائر" جميعها ذات مصدر إسلامي وعرف ذلك من خلال ذكر أسماء الموصين، مما يسر على الباحث معرفة مصدر الوصية، وانتسابها إلى العصر الذي قيلت فيه، وهي على ثلاثة عصور.

أولاً: عصر صدر الإسلام

لم يرد في كتاب البصائر والذخائر من وصايا هذا العصر إلا وصية واحدة لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أوصى بها خالد بن الوليد، وهي من وصايا العصر الراشدي، يقول فيها: "استكثر من الزاد، واستظهر بالأدلاء، وإذا جاءتك رسل أعدائك فامنع الناس من محادثتهم حتى يخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين واقلل الكلام، فإنما لك ما وُعي عنك، وكن بعيداً عن الحملة، فأني لا آمن عليك من الجولة، ولا تقاثلن على جزع فإنه فات بعضدك"⁽¹⁾.

ثانياً: العصر الأموي

صدرت هذه الوصية الوحيدة في كتاب "البصائر والذخائر" من تلك المدة وهي وصية زياد بن أبيه، والذي كان عمرو بن عبيد يوصي الناس بحفظها. يقول "إن الله عز وجل جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته، وأثابهم بها على طاعته، والناس بين محسن بنعمة الله عز وجل عليه، ومسيء بخلاف الله إياه، والله النعمة على المحسن والحجة على المسيء، فما أولى من تمت عليه النعمة في نفسه. ورأى العبرة في غيره، أن يضع الدنيا بحيث وضعها، فيعطي ما عليه منها، ولا يتكثر مما ليس فيها، فإن الدنيا دار فناء لا سبيل إلى بقائها، ولا بد من لقاء الله عز وجل، وأحذركم الله عز وجل، الذي حذركم نفسه، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة حتى صاروا إلى دار ليس لهم منها أوبة، ولا يقدرّون فيها على توبة، وأنا أستخلفُ الله عز وجل عليكم، وأستخلفه منكم"⁽²⁾.

ثالثاً: العصر العباسي

جاءت وصية هذا العصر في "البصائر والذخائر" لجنيد الصوفي، براوية قتادة عن يونس بن حيوة عندما شيعوا جنيداً قالوا له أوصنا، فقال: "أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نور الليل المظلم، وهُدًى النهار، فأعملوا به على ما كان من جهدٍ وفاقه، فإن عرض بلاء فقدّم مالك دون نفسك، واعلم أن المحروب من حُرْب دينه، والمسلوب من سلب

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، ج7، ص152.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص205-206، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج1، ص267.

نفسه، إنه لا غنى بعد النار، ولا فقر بعد الجنة، وإن النار لا يفك أسيرها، ولا يستغني فقيرها هذا والله الحد وما سواه تعليل، وبالله المعونة على كل حال⁽¹⁾.

وظائفها

إن من الوصايا التي جاءت في كتاب "البصائر والذخائر" غلب عليها الطابع السياسي ومنها ما جاءت دينية خالصة، فلا شك أن لكل معنى منها وظيفته الخاصة، من ذلك نجد أن وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد وصية سياسية إدارية ذات وظيفة توجيهية يقوم بها الموصي لما يعتقد من صواب في كيفية إدارة الجيش وملاقاة العدو في إطار سياسة الحرب وكيفية إدارة المعارك وما يجب على قائد الجيش فعله، وهي وسيلة من وسائل الانتصار، أما الغاية من الوصية والوظيفة الأسمى هي نصره دين الله وإعلاء كلمة الحق وخذلان الباطل حتى يقام شرع الله في الأرض. فالاستكثار من الزاد والاستظهار بالأدلاء وحفظ الأسرار وقلة الكلام، والصبر عند القتال أسباب لتحقيق النصر على الأعداء، وهذه التوجيهات هي الوظيفة الحقيقية التي جاءت من أجلها الوصية لأنها رسم للطريق الصحيح في إدارة الجيش وكيفية تعامله مع الأعداء.

ومن الوصايا التي وظفت توظيفاً دينياً وعظيماً، وصية زياد بن أبيه فهي تبيان لتكليف الله عز وجل عباده، وجعل العقل مناطاً للتكليف.

فالمعاني التي دارت عليها الوصية، معاني إسلامية قائمة على النصح والإرشاد، كالحث على طاعة الله عز وجل، وإن يعتبر الإنسان من غيره، وإن يأخذ من الدنيا على قدر كفايته لأنها توشك على الفناء ولا بد للإنسان أن يلقي ربه عز وجل، ثم التحذير مما نهى الله عنه والتأكيد على صدق الوعيد.

وفي هذين العصرين الراشدي والأموي، طبعت الوصايا بطابع الإسلام، وما جاء به من قيم إيمانية وعقائدية وأخلاقية تطهر النفوس من الفواحش والزلل وتدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له⁽²⁾.

وأيضاً أخذت الجانب الديني طريقاً لها فظلت معانيها تحمل في ثناياها مبادئ الإسلام وتشريعاته السماوية التي من شأنها قيام وترسيخ مبادئ الدين الإسلامي، والوقوف عند حدوده

(1) المصدر نفسه، ج3، ص18.

(2) انظر: النورسي، رونك توفيق، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، ص18.

والأخذ بأوامره واجتناب نواهيه إضافة إلى وظيفة أخرى للوصايا، وهي تنظيم الحياة دينياً وعقائدياً وفقاً لتعاليم الدين الإسلامي.

وأما وصية الجنيد الصوفي فأول وظيفة لها الدعوة إلى تقوى الله عز وجل، والتزام القرآن الكريم والعمل بأحكامه وتشريعاته في كل الأحوال ثم خرجت الوصية لوظيفة أخرى هي التوجيه بكيفية التعامل مع الابتلاءات التي تصيب الإنسان في حياته، وجعل الموصي تقديم المال على النفس في زمن البلاء، ثم الحفاظ على الدين والترهيب من النار والترغيب بالجنة.

موضوعاتها

نلاحظ في معاني الوصايا التي وردت في كتاب "البصائر والذخائر" أن موضوعاتها تنقسم قسمين:

أولاً: دينية سياسية

ففي وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد، وهو قائد جيش نجد أن الغالب على الوصية الجانب السياسي، فيمكن عدّ هذه الوصية من محاور الوصايا السياسية الإدارية، خاصة وأنها من وصايا زمن الردة عن الإسلام، حيث بدأت الحروب ضد المرتدين تشكل العنصر الأول للدفاع عن الدين الإسلامي الحنيف، فالموضوع الرئيسي في الوصية موضوع سياسي فرضته طبيعة الظروف التي استجدت على الساحة الدينية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك مما دعت إليه الحاجة لطرح مثل هذه الموضوعات التي غايتها نصره الدين والحفاظ على العقيدة.

إن في وصايا أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) قيمة رفيعة تقدّمها إلى جيش المسلمين ويريد منهم الالتزام بها، لتكون قواعد وأسس ثابتة يسير عليها المسلمون في حروبهم القادمة⁽¹⁾

ثانياً: دينية وعظية

إن من الوصايا الدينية الوعظية وصية زياد ابن أبيه، وهي من وصايا العصر الأموي القائمة على أصولها الإسلامية المستوحاة من هدى الرسالة النبوية حاملة في طياتها الأحكام والواجبات والحقوق.

(1) الفريخ، سهام، الوصايا في الأدب العربي القديم، ط1، مكتبة المعلا، الكويت، 1988م، ص51.

جاءت هذه الوصية بموضوعات دينية وعظية، وذلك بذكر نعم الله تعالى على عباده، ومن أجلها نعمة العقل الذي هو مناط التكليف؛ لأن المجنون رفع عنه القلم، ثم ما يترتب على المحسن من ثواب وعلى المسيء من عقاب.

وأخذت الوصية جانباً زهدياً، وذلك بالتحذير من الدنيا؛ لأنها دار زوال والرضى بالقليل منها وترك الجشع والطمع رغبة بالآخرة وطمعاً بالجنة والافتقار لما عند الله، ثم التذكير ببقاء الله عز وجل بعد الموت وفناء الدنيا، وأن يحذر الإنسان عقاب الله الذي حذر منه سبحانه وتعالى، والتعجيل بالأعمال الصالحة قبل انقطاع التوبة فحينها لا ينفع الندم.

وعلى النحو ذاته من الزهد والتصوف وصية الجنيد الصوفي لنفر من الناس يدعوههم إلى تقوى الله الذي يعد الموضوع الأعلى والأسمى التي جاءت من أجله الوصايا الدينية، وهو معيار في التشريعات الإسلامية التي من شأنها حفظ دين المؤمن، وتجنبه الوقوع في أحوال المعاصي، ثم أوصى بملازمة القرآن الكريم والعمل بأحكامه على كل حال، وهو جانب من أهم جوانب التقوى، وذلك بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، لأن الغنى الحقيقي هو الخوف من الله مع رجاء رحمته، وهذه الوصية من وصايا التصوف التي حملت في معانيها الزهد والترهيب والترغيب وهي من الموضوعات الدينية التي أخذت من المصادر الإسلامية.

الفصل الثاني

أشكال التعبير النثري في كتاب (البصائر والذخائر)

لأبي حيان التوحيدي

دراسة فنية

أولاً: الأمثال.

ثانياً: الرسائل.

ثالثاً: الخطب.

رابعاً: التوقيعات.

خامساً: الوصايا.

أولاً: الأمثال

أ - بناؤها:

اتسمت بعض الأمثال في كتاب البصائر والذخائر بالإيجاز وبساطة البنية، وخاصة منها التي جاءت على صيغة أفعل التفضيل نحو:

"أحذر من العقق"⁽¹⁾، و"أعري من مغزل"⁽²⁾، و"أحمق من ربع"⁽³⁾، و"أقسي من الحجر"⁽⁴⁾، و"أحر من يوم الوداع"⁽⁵⁾.

ومن الأمثال التي بُنيت على البساطة من أمثال العامة مما جاء على أفعل التفضيل أيضاً نحو: "أحمق من الجمل"⁽⁶⁾ و"أعتق من الحنطة"⁽⁷⁾ و"أنذل من فأر الحبس"⁽⁸⁾.

واتسم بعضها الآخر بتركيب البنية كقولهم: "أدبر غريره، وأقبل هريره"⁽⁹⁾ و"إذا قلّ الأعوان كلّ اللسان"⁽¹⁰⁾ و"استر عورة أخيك ما يعلم فيك"⁽¹¹⁾ و"يوهي الأديم ولا يرقعه"⁽¹²⁾ و"كلمته فما وجّم لي وجمّة [ولا أظهر رحمة] ولا نأماً نأمة ولا وشم لي وشمة ولا همّ لي ببنت شفة ولا نغى لي نغية" و"من يزرع خيراً يحصد غبطة ومن يزرع شراً يحصد ندامة"⁽¹³⁾.

ومن أمثال العامة التي وردت مركبة من جملتين نحو: "إن كان معلم وإلا فدحرج"⁽¹⁴⁾ و"البحر ملآن والكلب يلحس بلسانه"⁽¹⁵⁾

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، ج4، ص159.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص204.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص70.

(4) المصدر نفسه، ج5، ص159.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص85.

(6) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(7) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(8) المصدر نفسه، ج6، ص163.

(9) المصدر نفسه، ج6، ص164.

(10) المصدر نفسه، ج6، ص165.

(11) المصدر نفسه، ج6، ص162.

(12) المصدر نفسه، ج6، ص165.

(13) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(14) المصدر نفسه، ج9، ص57.

(15) المصدر نفسه، ج9، ص57.

و"سدّ البالوعة واسقني بالبير"⁽¹⁾، و"الضرب في الحاج والسب في الرياح"⁽²⁾، و"ليت اليسار استقبلني من باب الدار"⁽³⁾، وهناك أمثال جاء بناؤها على صيغة بيت شعري كقول الشاعر:

"ليس ذنابي الطير كالقوادم ولا ذرى الجبال كالمناسم"⁽⁴⁾

وقولهم "يسقيه من كل يد بكاس والقلب بين طمع وياس"⁽⁵⁾

ومن الجوانب المهمة من جوانب البناء الفني في الأمثال العربية، والتي شكّلت محورا أساسيا من محاور المثل، ونموذجاً مثالياً فيه ألا وهو الشخصية التي عكست صورة مماثلة لصفاتها الحقيقية مما جعلت من نفسها مضرباً للأمثال، ومن أبرز تلك الشخصيات:

1- الإنسان:

تضمنت بعض الأمثال في بُنيته شخصيات بشرية تميزت ببعض الصفات، فمنها ما كان غريزياً فطرياً، ومنها صفات مهنية دعت إليها الحاجة، فمن الصفات الغريزية الفطرية، قولهم: "الصبي أعلم بمصغى خده" أي هو أعلم بمن ينفعه⁽⁶⁾، وأما الصفة المهنية، ففي قولهم: "أفرغ من حجام سابط" لأنه كان يمرّ بالجوش، فيحجم من الكساد - نسيئة إلى أن يرجعوا⁽⁷⁾.

2- الحيوان:

برزت الشخصية الحيوانية في الأمثال العربية بروزاً واضحاً، وذلك لما وجده العرب من صفات حقيقية التمسوها في تلك الحيوانات، فجعلوها في مضارب أمثالهم خاصة وأن العربي بطبيعة حياته البدائية في الصحراء كان على تماس مع الحيوانات من ذلك عَرَف صفات الكثير منها، فبدأ يضرب الأمثال بالتفضيل أو التشبيه، أو المقارنة بحسنها وقبيحها،

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص57.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص86.

(3) المصدر نفسه، ج9، ص57.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص144.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص165.

(6) المصدر نفسه، ج6، ص162.

(7) المصدر نفسه، ج3، ص74.

كقولهم: "أحذر من العقعق"⁽¹⁾ و"أزهي من الغراب"⁽²⁾ و"ألج من الخنفساء"⁽³⁾ و"أحمق من الجمل"⁽⁴⁾ و"تركته على مثل مشفر الأسد"⁽⁵⁾.

ولم تقف العرب على الصفات الخارجية للحيوانات فحسب، بل ضربت الأمثال بأعضاء بعض الحيوانات أيضاً، كقولهم: "أطعم أخاك عقنقل الضب"⁽⁶⁾ و"أطعم أخاك من كلية الأرنب"⁽⁷⁾.

3- النباتات:

شكلت النباتات جزءاً من بناء المثل العربي، وذلك لما فيها من صفات محمودة وأخرى غير محمودة نحو: "أرض من العشب بالخصوبة"⁽⁸⁾ كناية عن القناعة والرضى بالقليل، وقولهم: "اعتق من الحنطة"⁽⁹⁾ و"أكسى من بصلة"⁽¹⁰⁾ و"أمر من العلقم"⁽¹¹⁾ و"العصا من العصية"⁽¹²⁾ و"من الحبة تنبت الشجرة"⁽¹³⁾ و"كل النمر على أنه كان مرةً رطب"⁽¹⁴⁾.

4- الطبيعة:

اشتقت بعض الأمثال نماذجها من الطبيعة، فجاءت وليدة البيئة التي يعيشها الإنسان، وما حملت تلك الطبيعة من صفات عرفها الإنسان فجعلها مضرِباً لأمثاله، وذلك كقولهم: "دع الوعيد يذهب بالبيد"⁽¹⁵⁾ و"الليل جنة كل هارب"⁽¹⁶⁾ وقولهم: "ليس من قال النار احترق فمه"⁽¹⁷⁾ و"أنف في السماء واست في الماء"⁽¹⁸⁾ و"لكل صباح صبح"⁽¹⁹⁾.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص159.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(4) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص165.

(6) المصدر نفسه، ج6، ص162.

(7) المصدر نفسه، ج6، ص162.

(8) المصدر نفسه، ج6، ص163.

(9) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(10) المصدر نفسه، ج2، ص204.

(11) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(12) المصدر نفسه، ج5، ص181.

(13) المصدر نفسه، ج6، ص96.

(14) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(15) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص166.

(16) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(17) المصدر نفسه، ج9، ص55.

(18) المصدر نفسه، ج6، ص167.

(19) المصدر نفسه، ج6، ص96.

ب- أسلوبها البلاغي:

1- الصورة:

تضمنت الأمثال في كتاب البصائر والذخائر صوراً بلاغية رائعة، تلك التي أعطت للأمثال جمالية حقيقية، وذلك لما اشتملت عليه من أساليب بلاغية، كالتشبيه، والكناية، والطباق، والمقابلة، والاستعارة إضافة إلى التضمين والاقتباس الذي جعل من العمل صورة شعرية إضافة إلى صورته النثرية التي جاء على أصلها.

فما جاء على أسلوب التشبيه صيغة: أفعل التفضيل، والتي جاءت للمقارنة والتفضيل بين المشبه والمشبه به من حيث الصفات الإيجابية والسلبية، وذلك نحو قولهم "أهدى من قطاة"⁽¹⁾ و"هو أنجح من ابن الباز"⁽²⁾ و"أعزى من مغزل"⁽³⁾ و"ألجّ من الخنفساء"⁽⁴⁾ ومنها ما جاء على صورة القصر لإفادة التوكيد نحو: "ما كانوا عندنا إلا كلفة ثوب"⁽⁵⁾.

وجاءت بعض صور التشبيه بلفظه (مثل) كقولهم: "تركته على مثل مشفر الأسد"⁽⁶⁾، ومن صور الأمثال الأخرى الكناية، والذي يعتبر المثل بكامله كناية، فإما أن يكون كناية عن صفة من الصفات، أو كناية عن ذات أو حقيقة. والكناية في الأمثال تكون خاصة لأنها تطلق على شيء بعينه، أو حادثة خاصة، ولكن يعد شيوع المثل تصبح الكناية فيه عامة تنطبق على كل شيء مناسب أو حادثة تلائم ظروفها الظروف التي أطلق باسمها المثل⁽⁷⁾.

فقولهم "بينهم داء الضرائر"⁽⁸⁾ جاء في الكناية عن الضرائر فقط، ولكنه كنى به عن كل عداوة رسخت بين قوم لأن العصبية بين الضرائر لا تكاد تسكن⁽⁹⁾ وكذلك قولهم "لا علة لا علة، هذه أوتاد وأخلّة"⁽¹⁰⁾، قال عنه الميداني: أن أصل المثل لامرأة خرقاء كانت لا تحسن

(1) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص72.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص204.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص164.

(6) المصدر نفسه، ج6، ص165.

(7) السامرائي، إبراهيم، في الأمثال العربية، مصدر سابق، ص145.

(8) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج6، ص164.

(9) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج1، ص93.

(10) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج6، ص166.

بناء بيتها، وتعتلُّ بأنه لا أوتاد لها، فأتاها زوجها بالأوتاد والأخلة، وقال لها هذا القول، فهو يضرب لمن يعتل عليك بما لا علة له فيه⁽¹⁾.

وجاء بعضها بأسلوب الاستعارة ففي قولهم من أمثال العامة "الضرب في الجناح والسبب في الرياح"⁽²⁾، ومعنى ذلك أن الضرب ليس في محل قاتل من الإنسان لأنه استعار الجناح للإنسان، وهي استعارة لطيفة⁽³⁾ وكذلك قولهم "عند النطاح يغلب الكباش الأجم". فقد استعار الكباش الأجم للإنسان الذي يستعد للنوائب قبل حلولها⁽⁴⁾، وكذلك قولهم في الاستعارة "أنف في السماء وأست في الماء"⁽⁵⁾ استعار لفظة (السماء) لتدل على الرفعة والعلو، ولفظة (الماء) لتدل على النزول، ومنه أيضاً قولهم "الواقية خيرٌ من الراقية" فقد استعار (الواقية) للاحتراس من الإصابة بالأمراض⁽⁶⁾. ومن صور الاستعارة أيضاً قولهم: "ضغث على إبالة" يضرب لمن يحمل المكروه ثم يزيد منه⁽⁷⁾.

ومن الصور البلاغية التي جاءت بها الأمثال الطباق، كقولهم "تعودُ بالله من الحور بعد الكور"، أي من النقصان بعد الزيادة⁽⁸⁾، وكذلك قولهم: "الحر يعطي والعبد يألم"⁽⁹⁾ و"جاء فلان يضحك ظهراً لبطن"⁽¹⁰⁾، ومن أمثال العامة قولهم: "يكسو الناس وأسته عارية"⁽¹¹⁾ وكذلك قولهم: "ربّ ساع لقاء"⁽¹²⁾.

وجاءت بعض الأمثال بأسلوب المقابلة نحو: "من يزرع خيراً يحصد غبطة ومن يزرع شراً يحصد ندامة"⁽¹³⁾ وكذلك قولهم: "لا تكن حلوا فتبلع ولا مرّاً فتلفظ"⁽¹⁴⁾.

ومن بلاغة الأمثال وأساليبها التضمين والاقتباس وهو عامل من عوامل ثبات الأمثال والحفاظ عليها، وتضمينها يدل على اهتمام الناس بها، وحرصهم على دوامها، وهي زينة

(1) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج2، ص227.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج4، ص86.

(3) انظر، السامرائي، إبراهيم، في الأمثال العربية، مصدر سابق، ص139.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج4، ص124.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص167.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص233.

(7) المصدر نفسه، ج4، ص124. الإبالة: حزمة الحطب، والضغث جُرْزَة.

(8) المصدر نفسه، ج8، ص134.

(9) المصدر نفسه، ج4، ص86.

(10) المصدر نفسه، ج6، ص163.

(11) المصدر نفسه، ج6، ص163.

(12) المصدر نفسه، ج3، ص83.

(13) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص56.

(14) المصدر نفسه، ج5، ص222.

الكلام، وملك الجميع، ولا تختص بطبقة دون أخرى، ولذلك يجدُّ الباحث الكثير منها مقتبساً باللفظ والمعنى، والثاني مقتبساً بالمعنى دون اللفظ⁽¹⁾.

فمما جاء مقتبساً باللفظ والمعنى قول لقيط في تضمين المثل "دمت لنفسك قبل النوم مضطجعا"

إذ عابه عائب يوماً فقال له دمت لنفسك قبل النوم مضطجعا.

والتدميث هو التسهيل، والمراد منه الاستعداد للنوائب قبل حلولها⁽²⁾

وقول: عمر بن أمامة في تضمين المثل "إن الجبان حتفه من فوقه"⁽³⁾ والحتف الهلاك، وخص هذه الجهة لأن التحرز مما ينزل من السماء غير ممكن، يشير إلى أن الحتف إلى الجبان أسرع منه إلى الشجاع⁽⁴⁾

وكذلك في قول أبي حيَّان البصري في تضمين المثل: "إياك أعني واسمعي يا جارة"

يا من أحبّ ولا أسمي باسمه إياك أعني واسمعي يا جارة⁽⁵⁾.

ومما ورد بالمعنى دون اللفظ قول أبي ذؤيب في تضمين المثل "لا يجتمع سيفان في غمد" تريدين كيما تجمعيني وخالدا وهل يجمع السيفان ويحك في غمد⁽⁶⁾.

2- الأساليب اللغوية:

جاء كثير من الأمثال سهلة الألفاظ واضحة المعاني، مما جعل منها لغة مفهومة بعيدة عن التكلف والتعقيد ومحبة إلى النفس، ومنها ما شابها بعض الغموض في المعنى، كقولهم "بين الممخة والعجفاء"⁽⁷⁾ و"حال الجريض دون القريض"⁽⁸⁾

أما من حيث الأسلوب اللغوي للمثل، فقد تنوعت أساليب الأمثال، مما أعطت للمثل جمالية واضحة من حيث اللفظ والمعنى، كونها بُنيت على الترابط والتناسق بين الألفاظ مع الحفاظ على المعنى العام لجملته المثل.

ومن أبرز الأساليب وأكثرها شيوعاً في الأمثال التي وردت في كتاب "البصائر والذخائر" أسلوب النفي، والذي شكل جزءاً كبيراً من هذه الأساليب، ومنه قولهم: "لا تنفع حيلة

(1) السامرائي، إبراهيم، في الأمثال العربية، مصدر سابق، ص143.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج4، ص125.

(3) المصدر نفسه ج4، ص137.

(4) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج1، ص10.

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص108.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص124.

(7) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص124.

(8) المصدر نفسه، ج1، ص126.

مع غيلة" ويضرب للذي تأمنه وهو يغشك ويغتالك" (1) و"ولا يملك حائنٌ دمه" (2) أي من حان حينه لا يقدر على حقن دمه (3) و"لا يجمع سيران في خرزة" (4) ويضرب لمن يجمع حاجتين في وجه واحد (5) و"ليس ابن أمك كابن علة" (6) والعلة: الضرة، وبنو العلات بنو رجل واحد من امهات شتى (7) ومنها أسلوب النهي، مثل قولهم "لا تخرج الفصيل عن أمه" (8) و"لا تطمع بكل ما تسمع" (9) وكذلك أسلوب الاستفهام نحو: "ما هذا البر الطارق؟" (10) و"حتى متى تكرع وأنت لا تشبع؟" (11)

(1) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص163.

(3) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج2، ص237.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج4، ص124.

(5) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج2، ص417.

(6) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج7، ص180.

(7) المصدر نفسه، ج7، ص180.

(8) المصدر نفسه، ج3، ص127.

(9) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(10) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(11) المصدر نفسه، ج6، ص165.

وجاءت بعض الأمثال بأسلوب التوكيد، كقولهم: "إن الجبانَ حتفه من فوقه"⁽¹⁾ و"إن الدلاء ملاكها الوزم"⁽²⁾ و"إن من القرف التلف"⁽³⁾.

ومنها ما جاء بأسلوب الاستثناء المفرغ لإفادة التوكيد أيضاً، كقولهم: "لا يقوم بهذا الأمر إلا ابن أجداهما"⁽⁴⁾ و"وليس القدر إلا بالأثافي"⁽⁵⁾ و"لم يبق من شيخك إلا حبه"⁽⁶⁾.

ثم شكّل الجانب الصوتي في الأمثال المسجوعة نغمة موسيقية أعطت جمالية للمثل لما حملته من نغمة صوتية متوافقة الفواصل، وذلك، كقولهم: "أدبر هريره وأقبل غريره" أي ذهب منه ما كان يعجب ويسر وجاء ما يكره منه من سوء الخلق⁽⁷⁾ و"حافظ على الصديق ولو في الحريق" ويضرب في الحث على رعاية العهد⁽⁸⁾.

ومنها كذلك أسلوب التكرار اللفظي لإفادة للتوكيد، كقولهم "لا علة، لا علة، هذه أوتاد وأخلة"⁽⁹⁾ ومن أمثال العامة بالأسلوب نفسه "إيش الذبابة وأيش مرقها"⁽¹⁰⁾ وكذلك قولهم "من كان دليله البوم كان مأواه الخراب"⁽¹¹⁾.

ووردت أساليب أخرى منها أسلوب الدعاء، كقولهم "نعوذ بالله من الحور بعد الكور" أي، النقصان بعد الزيادة⁽¹²⁾ و"اللهم قدر الآيّة" مصدر أوى والآيّة مصدر أوى أي رحم⁽¹³⁾ و"أهلك الله بدنك، ولا يسّر كفنك، ولا آجر من دفنك"⁽¹⁴⁾.

وكذلك أسلوب القسم، كقولهم: "والله ما كفأت له إناء ولا أصفرت له فناء"⁽¹⁵⁾.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص137.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص81.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص123.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص162.

(5) المصدر السابق، ج3، ص85.

(6) المصدر نفسه، ج6، ص163.

(7) المصدر نفسه، ج6، ص163.

(8) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(9) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(10) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(11) المصدر نفسه، ج9، ص56.

(12) المصدر نفسه، ج8، ص134.

(13) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(14) المصدر نفسه، ج9، ص57.

(15) المصدر نفسه، ج7، ص285.

ومما أشملت عليه لغة الأمثال المبتدأ والخبر، نحو: "الاستقصاء فرقه"⁽¹⁾ و"الإيناس قبل الإيباس"⁽²⁾ وقد يقدّم الخبر جوازاً لإفادة التوكيد كقولهم: "بينهم داء الضرائر"⁽³⁾ و"تحت الرغبة اللبن الصريح"⁽⁴⁾

وقد يقدّم الخبر وجوباً نحو: "لكل صباح صبح"⁽⁵⁾ وأما المعاني في الأمثال فإنها جاءت متناوبة بين الوضوح والغموض وهي إلى الوضوح أقرب منه إلى الغموض، ولعل السبب يعود لقلة الأمثال الجاهلية التي وردت في هذا الكتاب، والتي يكتنف الغموض بعضها، وما جاءت به من أمثال العامة والأمثال الشعبية التي كانت واضحة الألفاظ مفهومة المعاني سريعة الوصول إلى ذهن السامع، وهذا ما أنتجه فارق الزمن.

ونرى أمثال صيغة أفعال التفضيل واضحة المعاني سهلة الفهم، وذلك في قولهم: "أعزى من مغزل"⁽⁶⁾ و"أمرّ من العلقم"⁽⁷⁾ والعلقم نبات شديد المرارة يعرفه عامة الناس، وكذلك قولهم: "أكسى من بصلة"⁽⁸⁾ و"أقسى من الحجر"⁽⁹⁾.

وقد جاءت بعض المعاني غامضة بعض الشيء، مما يصعب على السامع فهمها، وذلك في قولهم: "أحمق من رُبّع"⁽¹⁰⁾ حتى أن بعض الأعراب دفع الحمق فقال: وما حمق الربع؟ فوالله إنه ليتجنب العدوى، ويتبع المرعى، ويرأوح بين الأطباء، فما حمق ربع يا هؤلاء؟⁽¹¹⁾. وجاءت بعض الأمثال بألفاظ مختلفة المعنى في المثل الواحد، ولذلك لما يحمله الموصوف من صفات عدة في آن واحد، ومن ذلك قول العرب "أهدى من القطاة"⁽¹²⁾ و"أصدق

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج7، ص241.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص234.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص164.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص189.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص83.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص204.

(7) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(8) المصدر نفسه، ج2، ص204.

(9) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(10) المصدر نفسه، ج5، ص70.

(11) الأصبهاني، الإمام حمزة بن الحسين، (350هـ، الدرة الفاخرة، في الأمثال السائرة، تحقيق: عبد المجيد قطاش، دط، دار المعارف، ج4، ص159.

(12) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج4، ص159.

من قطاة" فأما هدايتها فإنها تهتدي إلى المجاهل وتعرف مواضع الماء، وإما صدقها فإن لها صوتاً واحداً لا غيره، وصوتها حكاية لاسمها⁽¹⁾.

3- الخصائص العامة:

وضع أبو عبيدة القاسم ابن سلام الملامح الأسلوبية العامة للأمثال العربية في تعريفه لها بقوله: "يجتمع للأمثال ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه"⁽²⁾، وقد أضاف بعض العلماء خصائص أخرى اشتملت عليها الأمثال، كجودة الكناية، إضافة إلى بقاء الأمثال وديمومتها لما تميزت به من خصائص جعلتها تعمّر طويلاً. وهذه الخصائص الأنفة الذكر:

1- الإيجاز:

يعد الإيجاز من أشهر خصائص المثل، ويعني قلة الألفاظ واتساع المعنى، فالكثير من الأمثال بُنيت على قصص حقيقية، وأحداث تاريخية مطوّلة، اختزلها المثل بكلمات قليلة تحمل في طياتها معانٍ كثيرة.

فالمعاني والألفاظ شيئان متلازمان، وقد ذكر أبو حيّان التوحّيدي: أنه سمع شيخاً من النحويين يقول: "المعاني هي الهاجسة في النفوس المتصلة بالخواطر، والألفاظ ترجمة للمعاني، وكلّ ما صحّ معناه صحّ اللفظ به"⁽³⁾ وقال أصحاب الإيجاز: "الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخلل، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة"⁽⁴⁾.

وقد ورد الإيجاز في الأمثال على طبيعته التي انقسم عليها، كالمساواة والحذف. أما المساواة: هي أن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب⁽⁵⁾، وقد جاءت هذه الصورة في الأمثال التي بنيت على القصص والحوادث، كما في قول العرب: "كفى برغائها منادياً"⁽⁶⁾ أن

(1) الجاحظ، كتاب الحيوان، مصدر سابق، ص173.

(2) انظر: السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، ت 911هـ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، مصدر سابق، ج1، ص174.

(3) التوحّيدي، البصائر والذخائر، ج1، ص174.

(4) العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل، ت 395هـ، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، بيروت، 1414هـ، ص173.

(5) المصدر نفسه، ص175.

(6) التوحّيدي، البصائر والذخائر، ج2، ص30.

رجلاً بينما هو في بيته إذ جاءه ضيف فنزل ناحية فجعلت راحلته ترغو، فقال ربّ البيت من هذا الذي آذانا رغاء راحلته، ولم ينزل علينا فيتوجب حق الضيف؟ فقال الضيف "كفى برغائها منادياً"⁽¹⁾.

وكذلك قولهم: "ربّ كلمة تقول لصاحبها دعني"⁽²⁾ وأصله أن ملكاً من ملوك حمير خرج متصيّداً معه نديم له يُقرّ به ويكرمه، فأشرف على صخرة ملساء ووقف عليها، فقال له النديم: لو أن إنساناً ذبح على هذه الصخرة أين يبلغ دمه؟ فقال الملك: إذبحوه عليهما ليرى دمه أين يبلغ، فذبح عليها، فقال الملك: ربّ كلمة تقول لصاحبها دعني"⁽³⁾.

وقولهم أيضاً "نعم كلبٌ من بؤس أهله"⁽⁴⁾ وأصلها أن قوماً من العرب كانت لهم ماشية من إبل وغنم، فوقع فيها الموت، فجعلت تموت فيأكل كلابهم من لحومها، فأخصبت وسمنت، فقليل نعم كلبٌ من بؤس أهله"⁽⁵⁾.

وأما إيجاز الحذف فهو الصورة الثانية من صور الإيجاز، وهو حذف لأحد أركان الجملة مع الحفاظ على المعنى المراد، فهو كلام قليل يفسّر كلاماً محذوفاً بتقدير.

ومما جاء بأسلوب الحذف في الأمثال هو: حذف المشبه مع بقاء معناه مقدراً حفاظاً على المعنى العام للجملة كما في أمثال أفعل التفضيل نحو قولهم: "أقسى من الحجر"⁽⁶⁾ و"أكسى من البصل"⁽⁷⁾ و"ألج من الخنفساء"⁽⁸⁾، فالمحذوف منها المشبه المقدّر بلفظة (فلان). أي فلان أقسى من الحجر، وأكسى من البصل، وألج من الخنفساء.

2- إصابة المعنى:

الأمثال العربية وليدة التجارب التي عاشها العربي، ولم تأت إلا لإصابة معنى بعينه، وهذا ما دلّت عليه موارد الأمثال التي بنيت على الأحداث والقصص. فملاءمة المعاني للأفكار إصابة للمعنى المراد. لذلك نرى أن مضرب المثل قائماً على مورده، فالعلاقة

(1) الضبي، المفضل بن محمد، ت178هـ أمثال العرب تحقيق الدكتور: إحسان عباس، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، 1981م، ص170.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج4، ص202.

(3) الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ج1، ص306.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج3، ص174.

(5) الضبي، المفضل بن محمد، أمثال العرب، مصدر سابق، ص173.

(6) التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر السابق، ج1، ص153.

(7) المصدر نفسه، ج2، ص361.

(8) المصدر نفسه، ج2، ص369.

متلازمة المعاني على مدى الأزمان، ويجد القارئ هذه الإصابات للمعنى في الأمثال حينما يمكنه استعمالها وجعلها مضرِباً للحالة التي تناسبها.

فقولهم: "بعض الشّر أهون من بعض"⁽¹⁾ و"الأيام عوج رواج"⁽²⁾ و"ويل أهون من ويلين"⁽³⁾ و"كل صباح صبح"⁽⁴⁾ أمثال يشتمُّ فيها رائحة الحكمة، فهي قيلت عن تجربة حقيقية نابعة عن فهم للواقع الذي عاشه القائل، لذا جاءت بمعان واضحة ومؤثرة بعيدة عن التعقيد سريعة الفهم، ومن ثمَّ فإنَّ العلاقة بين مورد المثل ومضرِبِه علاقة معنوية.

3- حسن التشبيه:

للتشبيه روعة وجمال، وموقع حسن في البلاغة: وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي، وإدناؤه البعيد من القريب، ويزيد المعاني رفعة ووضوحاً، ويكسبها جمالاً وفضلاً، ويكسوها شرفاً ونبلاً، فهو فن واسع النطاق، فسيح الخطو ممتد الحواشي متشعب الأطراف متوعر المسلك، غامض المدرك دقيق المجرى غزير الجدوى⁽⁵⁾.

والتشبيه يعطي للمثل صورة بلاغية واضحة المعنى من خلال تقريب المقصود بين المشبه والمشبه به، كي يسهل على القارئ فهمه، خاصة في الأمثال التي يكون فيها المشبه غائباً، أي غير مصرّح به، فقولهم: "من صير نفسه نخالة بحثها الدجاج"⁽⁶⁾ فالمشبه في هذا المثل هو الانسان والمشبه به هي النخالة.

وفي المثل "جرى منه كلامي مجرى اللدود" يعني بلغ كل مبلغ⁽⁷⁾، فالمشبه الكلام والمشبه به مجرى اللدود.

4- جودة الكناية:

الكناية هي: أن تتكلم بشيء وتريد غيره⁽⁸⁾، فالكناية. هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له، ولكن يجيء بمعنى هو مرادفه، فيؤمى به إلى المعنى الأول ويجعله دليلاً عليه⁽⁹⁾.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر السابق، ج1، ص42.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص166.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص42.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص96.

(5) الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، ت 1362هـ، جواهر البلاغة، تحقيق: د. يوسف الصميلي، د. ط، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت، ص219.

(6) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر السابق، ج9، ص56.

(7) المصدر نفسه، ج6، ص164.

(8) ابن منظور، جمال الدين محمد بن علي، ت711هـ، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414م، ص233، مادة كنى.

(9) انظر: الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة، مصدر سابق، ص445.

فغالب الأمثال لم تصرّح بمرادها الحقيقي، بل هي ألفاظ مختلفة فيها إشارات وإيحاءات خفية تدل على المعنى المطلوب.

ومن هذه الأمثال قول العرب: "ربّ حام لأنفه وهو جادعه" يرب لم يأنف من شيء ثم يقع في أشد مما حمى منه أنفه⁽¹⁾.

وكذلك قولهم: "أنت بين كبدي وخبلي"، والخبْل غشاء الكبد وقيل حجاب القلب⁽²⁾، وهي كناية عن التعبير عن الحب والمعزّة. فمضارب الأمثال كفيلة بوجود بلاغة الكناية لأن مضرب المثل هو نقل للمعنى الذي جاء من أجله مورده.

5- الصيرورة والبقاء:

سادت الأمثال على كلّ لسان فتداولتها العامة والخاصة، ووردت على السنة الحيوانات والطيور، وذلك أنها تتناسب كل مقام⁽³⁾، ومعلوم أن الأمثال لا تتغيّر بل تجري كما جاءت على السنة الناس وتبقى ثابتة مدى الأزمان وإن خالفت قواعد النحو والصرف⁽⁴⁾، فقد جاء في أمثال العرب: "أجناؤها أبناؤها"⁽⁵⁾ جمع جان وبان، والقياس "جُنّاتها وبُنّاتها" لأن فاعلاً لا يجمع على أفعال⁽⁶⁾.

وإن للأمثال قوة على البقاء، لأنها عصارة تجارب إنسانية فهي تزخر بالحياة التي عمرت بها على مر العصور. ولما كانت الأمثال لوناً من ألوان الحياة، فلا بد لها من مقومات تجعل لها القدرة على المحافظة على كيائها، ومن هذه المقومات استعمالها بين الخاصة والعامة، وتداولها على كلّ لسان، ذلك التداول أكسبها بقاءً. وأمدّها بحياة عبر الأيام⁽⁷⁾.

وأكثر الأمثال بقاءً تلك التي تحمل في طياتها معانٍ تتلاءم مع واقع الإنسان الاجتماعي لما فيها من صفات ووظائف تجعلها متداولة على الألسن. وكلّ ما يتعلق بالمثل يكون باعناً للشهرة والتداول وذلك لحاجة الإنسان إليها. وقد نجد في كتاب البصائر والذخائر بعض

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص163.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص167.

(3) أبو زيد، سامي يوسف، الأدب العباسي، مصدر سابق، ص177.

(4) محمود رزق، حامد، العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص233.

(5) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص124.

(6) ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص408.

(7) السامرائي، إبراهيم، في الأمثال العربي، مصدر سابق، ص143.

الأمثال المتداولة، كقولهم: "بعض الشر أهون من بعض"⁽¹⁾ وقولهم "إياك أعني واسمعي يا جارة"⁽²⁾ و"بينهم داء الضرائر"⁽³⁾ و"أقسى من الحجر"⁽⁴⁾ و"أمر من العلقم"⁽⁵⁾.

6- سهولة الحفظ:

لما امتازت به الأمثال من خصائص عامة، كالإيجاز وحسن التشبيه والكناية وإصابة المعنى إضافة إلى الأساليب اللغوية والعلاقة المترابطة بين اللفظ ومعناه جعلتها سهلة الحفظ، وأعطتها قوة في التأثير بنفس السامع.

وهناك أنماط أخرى كالسجع الذي يعدّ خصيصة أساسية في بنية المثل الصوتية التي والذي تفضي على جملة المثل إيقاعية واضحة تسهم في تيسير تلقي المثل وحفظه واستعادته. مما يوفر للأمثال سبباً إضافياً للشيوخ والانتشار على السنة العامة والخاصة⁽⁶⁾.

إضافة إلى ما تحمله بعض الأمثال من حكم ومواعظ تكون دافعاً مؤثراً نحو تقبل السامع لها، فتكون له الرغبة في حفظها.

ثانياً: الرسائل

أ- بناؤها

جاءت أبنية الرسائل في كتاب البصائر والذخائر في المقدمة والعرض والخاتمة، وهي العناصر الأساسية التي بُنيَ عليها الشكل العام للرسالة، وقد تمخض عن كلّ عنصر منها جزئيات شكلت البنية الداخلية للرسالة، حتى اكتملت صورة بنائها، ومن ثم نجد أنّ ما بين أيدينا من نصوص جاءت صورتها البنائية كالآتي:

أولاً: المقدمة:

تشكل المقدمة لبنة الأساس في شكل الرسالة الفني، فهي تعبّر بالقارئ إلى صلب الرسالة عبوراً يحقق الغاية المأمولة التي ابتدع الكتاب المقدمة من أجلها، فالتهيئة القلبية تجعل القارئ أقدر على تحمل ما قد ينطوي عليه مضمون الرسالة من مفاجآت لم يكن قادراً على استشعارها إلا إذا أنعم نظره في المقدمة والنقط من صيغ: البسملة، والعنوان أو التحية أو

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج1، ص42.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص108.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص164.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص159.

(6) انظر: داود، أماني سليمان، الأمثال العربية القديمة، مصدر سابق، ص79.

التحميد ما قد يفتح له نافذة على الموضوع الذي سيأتي إليه الكاتب عقب الفراغ من مقدمته⁽¹⁾
فمن الجزيئات التي تشكلت المقدمة على أساسها في الرسائل، هي:

أ- البسمة:

تعد البسمة أول جزء من عناصر البناء الفني التي استهلكت بها حدود كثير من الرسائل، ولم تكن مطردة في جميعها، بل تأتي لما يقتضيه المقام وبما يناسب الحال، كما في رسالة كلثوم بن عمر العتابي إلى رجل في حاجة: "بسم الله الرحمن الرحيم، أطل الله بقاءك، وجعله يمتد لك إلى رضوانه والجنة..."⁽²⁾، حيث جاء الاستهلال مناسباً لمقتضى حال صاحب الحاجة الذي يطلب الاسترحام بقضاء حاجته، لذا نرى أن الرسالة تحمل معنى المدح والثناء.

ونجد المعنى نفسه في رسالة محمد بن حميد الطاهري إلى محمد بن حازم الباهلي عندما أسدى له بهدية، فكتب له: "بسم الله الرحمن الرحيم، أكرمك الله وأبقاك، ذو الأدب تبعثه قدرته على نعت الشيء بخلاف هيئته..."⁽³⁾.

وكذلك الحال في رسالة كشاجم إلى بعض إخوانه: "بسم الله الرحمن الرحيم، كتبت - أعزك الله - من المحل الجديب، والبلد الفقر الذي أنابه غريب، عن سلامة الجوارح والحواس..."⁽⁴⁾.

وكتب بعض الهاشميين إلى السندي بن شاهك: "بسم الله وأمتع بك، إن أخانا أحد خادمي أخذ رجلاً من الشرط بسب كلب..."⁽⁵⁾.

وهكذا نجد أن جميع الرسائل الأنفة الذكر جاءت بموضوعات طلبية لقضاء حوائج، لذا نراها ناسبت المقدمة التي بدأت بالبسمة.

ب- ذكر المرسل والمرسل إليه.

ينضاف العنوان إلى العناصر التي تبنى منها مقدمات الرسائل في العصر العباسي، حيث يتضمن ذكر اسم المرسل والمرسل إليه، ومهمته الإفصاح عن طرفي المراسلة بشكل

(1) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص 450.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج5، ص 68.

(3) المصدر السابق، ج4، ص 152.

(4) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق ج2، ص 143.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص 23.

جلي حتى لا يترك مجالا لوقوع اللبس والغموض، فهو دليل وبيان، تتعقد عليه أطراف المراسلة ووضوح الوجهة، وغالباً ما يأتي بعد البسملة⁽¹⁾.

فمن الرسائل التي اقترن فيها العنوان بالبسملة، رسالة الأمين إلى طاهر بن الحسين، كتب فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد أمير المؤمنين إلى طاهر بن الحسين، أما بعد..."⁽²⁾ وقد ورد العنوان غير مقترن بالبسملة، كما في رسالة يزيد إلى عبيد الله بن زياد: "من عبد الله يزيد أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن زياد، سلام عليك..."⁽³⁾.

ج- استهلاات أخرى:

شكلت الاستهلاات جزءاً مهماً في بناء الرسائل، حيث تباينت ألفاظها تبعاً لما يراه المرسل مناسباً لموضوع الرسالة ومقام المرسل إليه، ومما ورد منها:

1- الاستهلال بالحمد:

ورد الحمد في الكثير من مقدمات الرسائل لا سيما الإخوانية منها، فقد وردت في رسالة ليزيد بن المهلب: "الحمد لله، الذي كفى بالإسلام فقد ما سواه..."⁽⁴⁾، وفي رسالة لكاتب: "الحمد لله الذي لم يُوحش منك ربك..."⁽⁵⁾.

2- الاستهلال بالشعر:

استهلت بعض الرسائل الإخوانية بالشعر العذب الرصين، تعبيراً عن أفكارهم بالمنظوم الشعري الذي من شأنه حدوث الوقع في نفس المتلقي وهو جزء من أساليب الاستمالة بطريقة الجرس الذي يترك صدًى في أذان المتلقين.

ومما استهل بالشعر من مقدمات الرسائل، كتاب إبراهيم بن العباس الصولي إلى

محمد بن عبد الملك الزيات يستعطفه، فكتب:

أحْ كُنْتُ أوى منه عند ادِّكاره	إلى ظلِّ فينان من العز باذخ
سعت نُوبُ الأيام بيني وبينه	فأقلعن منا عن ظلوم وصارخ
وإني وإعدادي لدهري محمداً	كملتس إطفاء نار بنافخ ⁽⁶⁾ .

(1) انظر: الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص 458.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج6، ص 215.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص 178.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص 133.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص 167.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص 121.

3- استهلاطات بصيغ شائعة مثل: (كتابي هذا)، (إذا قرأت كتابي).

لقد كان كتاب الرسائل في عصور الإسلام الأولى يستهلون مكاتباتهم باسم المرسل والمرسل إليه... وفي القرن الرابع الهجري تطور هذا الضرب من الاستهلال الذي شاع فيه اسم المرسل والمرسل إليه في صدر الرسالة، إلى ذكر الضمير الذي ينوب عن ذلك الاسم مضافاً إليه لفظة (كتاب) ⁽¹⁾ ومما ورد على هذه الصيغ في بحثنا، رسالة كتبها عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف الثقفي: "إذا قرأت كتابي هذا..." ⁽²⁾ وفي رسالة كتبها أحمق إلى أبيه من البصرة: "كتابي هذا، ولم يحدث علينا بعدك إلا خيراً..." ⁽³⁾ كما وردت صيغة (رأيتي) في رسالة كاتب إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان: "رأيتي فما أتعاطى..." ⁽⁴⁾

ثانياً: التخلص (أو فصل الخطاب)

بعد الفراغ من المقدمات أو المدخل إلى الرسالة لا بدّ من وسيلة للتخلص منها إلى المضمون، وقد استعمل العرب لذلك صيغة تخلص تفصل بين هذا المدخل والمضمون الذي هو غاية الكاتب من كتابه وهي قولهم: "أما بعد" ⁽⁵⁾، فمن الرسائل التي حسّنت بالتخلص بهذه اللفظة التي شكّلت جزءاً من البنية الفنية للرسائل، كما في رسالة غيلان الشامي إلى عمر بن عبد العزيز، وهو خليفة: "أما بعد يا أمير المؤمنين..." ⁽⁶⁾ وعلى النحو ذاته، كتب بشر بن غياث إلى رجاء بن أبي الضحّاك كتاباً قال فيه: "أما بعد، فأني قد وجهت إليك بفلان..." ⁽⁷⁾ وأيضاً في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية: "أما بعد، فأني كتبت إليك كتاباً في القضاء..." ⁽⁸⁾.

(1) انظر: رضا، غانم جواد، الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011م، ص 368

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر السابق، ج1، ص174.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر السابق، ج6، ص189.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص225.

(5) المقداد، محمود، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، مصدر سابق، ص226.

(6) التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر السابق، ج2، ص223.

(7) المصدر نفسه، ج5، ص159.

(8) المصدر نفسه، ج7، ص157.

ثالثاً: المضمون:

يراد (بمصطلح المضمون) مجموعة الأفكار المختلفة التي يسوقها الكاتب في ثنايا رسالته، موشحة بصدق الإحساس والشعور، ومحفوفة برؤى الخيال الجميل ومطرزة بظلاله البديعية وديباجه الفنية الرائعة⁽¹⁾

وقد تنوعت الأساليب تنوعاً مناسباً لموضوع الرسالة وهو جزء من إيصال المعنى بطرائق مختلفة تشكلت منها البنية الأساسية للرسالة: وهي كالآتي:

أ- الاقتباس من القرآن الكريم:

تضمنت بعض الرسائل اقتباساً من القرآن الكريم، حيث جاءت مناسبة لموضوعاتها مما زادت من قوة المعنى وجزالة اللفظ.

ومما ورد على هذا الشكل رسالة كتبها أبو العيلاء إلى الوزير أبي صقر: "... فلقد أنفقت عليّ مما ملكك الله، وأنفقت ما تيسر لي من القول، والله تعالى يقول: (لينفق ذو سعة من سعته) وقد أنفق كلّ مما ملكه الله ... " ⁽²⁾

ب- المقطوعات والأبيات الشعرية:

جاءت بعض الرسائل بمضامين شعرية شكلت الجزء الأكبر في عرض بعض الرسائل وقد تأتي على ما يراه الكاتب، فأصبحت العبارات مجموعة من الأفكار ينقلها القارئ بطريقة المنظوم الشعري، وقد نجد ذلك في رسالة كتبها المبرد إلى بشر بن سعد المرثدي: " اقتضائي إياك - جعلني الله فداك - اقتضاءً من تحب مطالبته لضروب ... وقد قلت:

وقاك الله من إخلاف وعدٍ وهضم إخوة أو نقص عهدٍ

فأنت المرتضى أدباً وعلماً وبيتك في الذؤابة من معدّ

وتجمعنا أوامر لازمات شداد الأسر من سبب وودّ

وما كنت أخاف خلفاً ممن كرم أدبه وشرف مركبه، وطاب حسبه... " ⁽³⁾.

(1) رضا، غانم جواد، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، مصدر سابق، د.ط، المكتبة الوطنية، بغداد، 1978م، ص 182-183.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر السابق، ج1، ص 78.

(3) (التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص115

رابعاً: الخاتمة:

اختلفت ألفاظ الاختتام في الرسائل بعد الفراغ من المضمون، حيث وردت بصيغ ومعانٍ مختلفة، ولم يكن هذا الاختلاف عفويًا، وإنما جاء مقصوداً لما يراه الكاتب مناسباً لمضمون رسالته. ومن صيغ الاختتام:

أ-الاختتام بالدعاء والحمد.

ولعل الاختتام بالدعاء من الأساليب الفنية الشائعة، كالشكر وبث الأشواق، وما إلى ذلك⁽¹⁾..

ومن هذه النماذج التي اختتمت بالدعاء رسالة كاتب إلى آخر، كتب فيها: "... برأت أنفسكم من أسقام الذنوب، وطهرت ثيابكم من دنس الآثام"⁽²⁾ ومنها أيضاً رسالة كاتب إلى آخر: "... حتى يقبضك على خير عمرك، وأحسن عملك"⁽³⁾

وقد يأتي الدعاء بالحمد بعد الانتصار في خواتيم الرسائل كما في رسالة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة في حرب: "... فقطع دابر الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين"⁽⁴⁾.

ب - الاختتام بآي القرآن الكريم والتعابير الدينية:

شاعت في بعض الرسائل خواتيم بآيات قرآنية أو بتعابير دينية يراها الكاتب مناسبة لموضوع الرسالة مثل: (إن شاء الله).

ومما ختم بآي القرآن الكريم رسالة يحيى بن خالد إلى الرشيد من الحبس: "... فإن الله تعالى يقول: (ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى)"⁽⁵⁾ ومن التي ختمت بعبارات المشيئة رسالة موسى بن عمران إلى الجاحظ يدعوه لزيارته: "... فعلت إن شاء الله"⁽⁶⁾

⁽¹⁾ (رضا، غانم جواد، الرسائل الادبية النثرية في القرن الرابع الهجري، مصدر سابق، ص374

⁽²⁾ (التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر السابق، ج4، ص167.

⁽³⁾ (المصدر نفسه، ج4، ص167.

⁽⁴⁾ (المصدر نفسه، ج4، ص133.

⁽⁵⁾ (التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج4، ص167.

⁽⁶⁾ (المصدر نفسه، ج9، ص123.

ج- الاختتام بالشعر:

الاختتام بالشعر من الأساليب التي شاعت في اختتام الرسائل الأدبية في القرن الرابع الهجري، وهي دعامة مهمة في البناء الفني للرسالة إذ كان الكتاب كثير ما يسوقونه للحكمة والمثل فضلاً عما يحمله من حلاوة الموسيقى وحلاوة النغم⁽¹⁾

ومن الرسائل التي اختتمت بالشعر رسالة يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة:

أظنّ الحلمَ دلَّ عليَّ قومي وقد يُستجْهَلُ الرجلُ الحليمُ

ومارستُ الرجالَ ومارسوني فمعوجٌ عليَّ ومستقيمٌ⁽²⁾

وعلى النحو ذاته اختتم أحمد بن المعدّل رسالته إلى أخيه عبد الصمد بالشعر، فقال:

أطاع الفريضة والسنة فتاة على الإنس والجنة

كأن لنا النارَ من دونه وأفرده الله بالجنة

وينظرُ نحوي إذا جئتُه بعيني حماة إلى كتّة⁽³⁾

ب- أسلوبها

1- الصورة:

برزت بعض الصور البيانية في الرسائل بأساليب مختلفة، تعتمد على قوة الأسلوب عند الكاتب بغض النظر عن زمانه؛ لأن الصورة البيانية ما هي إلا ألفاظ لغوية يتخيرها الكاتب بما تشتهيئه نفسه كي يجعل من رسالته صورةً تضي على المكتوب قوة في الألفاظ ووضوحاً في المعاني، ومن ثم نرى أن هذه الألفاظ صيغت بأساليب تشكلت منها الصورة التي أضفت على المكتوب قوةً وجمالية جعلت من عباراتها بنياناً مرصوفاً. ومما ورد من هذه الأساليب:

أسلوب التشبيه، وهذا الأسلوب البياني جاء لتقريب الفكرة التي حملتها هذه الصورة، وإيصالها بسلاسة.

ومما ورد في التشبيه رسالة ابن الحرون إلى حمويه، وهو يمدح شدة بلاغته: "...وهي أقلام من القصب كقداح النبل في أوزانها، والخيزران في اعتدال قوامها..."⁽⁴⁾ حيث شبه قلم القصب بقدح النبل واعتدال الخيزران.

(1) رضا، غانم جواد، الرسائل الادبية النثرية في القرن الرابع الهجري، مصدر سابق، ص375.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج 9، ص 123.

(3) المصدر نفسه، ج 5، ص13.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص29-30.

كما ورد التشبيه في بعض العبارات بصيغة التكرار إفادةً لتأكيد المعنى واكتمالاً لجمالية الصورة، وذلك في رسالة يزيد إلى عبد الله بن زياد: "... فعلت فعل الحازم الناصح، وصلت صولة الشجاع الباسل"⁽¹⁾.

وكذلك أسلوب الكناية الذي نقل المعنى الواحد بألفاظ مختلفة مما أعطى جمالية للصورة أكثر من التشبيه، كما في رسالة إسماعيل الأعرج: عندما أهدى له رجل فالودجة زينة، فكتب: "برئت من الله إن لم تكن عملت هذه فالودجة قبل أن تمصر أصفهان، وقبل أن تفتح السوس، وقبل أن أوحى ربك إلى النحل"⁽²⁾. فقد جاءت الكناية في العبارات الثلاث لتشير إلى قدم صناعة فالودجة التي أهديت إليه التي دلت عليها رائقها.

ومن صور الكناية أيضاً، كما في رسالة كاتب إلى آخر يقول: "أرعى مخصتنا في خصب جنابك، ورويت معطشنا من صوب سحابك، حتى تجافت البطون عن الظهور، وأقلعت العيون عن الجفون"⁽³⁾. فقد وردت في جمليتي (تجافت البطون عن الظهور) و(أقلعت العيون عن الجفون) كناية عن الشبع وذهاب الجوع.

وقد ورد أسلوب الاستعارة، كما في رسالة أبي خليفة للصولي: "... وصل كتابك مبهم الألوان، مظلم البيان..."⁽⁴⁾ فقد استعيرت لفظة (مظلم) لغير المعنى الذي وضعت لأجله لوجود قرينة منعت من المعنى الأصلي وهي: لفظة (البيان).

ومن صور الاستعارة اللفظية في رسالة بعثها الحجاج إلى أهل سجستان عندما بعث لهم أدهم بن محرز الباهلي فكتب لهم عن صفاته: "... سمين الأمانة"⁽⁵⁾ فجاءت الاستعارة اللفظية (سمين).

2- اللغة:

امتازت لغة المكاتبات بألفاظ متباينة ومتشابهة تبعاً لاختلاف عصورها، فرسائل صدر الإسلام اتسمت ألفاظها بالسهولة والوضوح والابتعاد عن الغريب، وهذا ما يتطلبه الواقع لإفهام الناس وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم، إضافة إلى تضمين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في رسائل ذلك العصر، وهذا السهولة والوضوح بقيت قائمة حتى العصر الأموي الذي

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص 178.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص184.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص95.

(4) المصدر نفسه، ج5، ص 45.

(5) المصدر نفسه ج5، ص 225.

ظلت ألفاظ رسائله تحمل معاني الدين الإسلامي الحنيف، وإن طرأ على رسائله البيانية بعض الألفاظ التي لم تكن مألوفة، وهذا ما رأيناه في رسالة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى وهرام بن يزداد والي أصفهان يقول فيها: "... فعضّ يا وهرام على هنّ أبيك وحرّ أمك..."⁽¹⁾، وأما العصر العباسي فالغالب على رسائله سهولة ألفاظها ووضوح معانيها.

فأما رسائل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فيبدو فيها التعبير المباشر عن الأفكار والمعاني بوضوح في مجال ما أثر عن النبي من رسائل وعهود، فهي تقصد إلى الغرض الأساس مباشرة من غير عناية تذكر بتحلية اللفظ أو المبالغة في تخريره⁽²⁾، وقد نلاحظ كلّ ذلك في رسالته صلى الله عليه وسلم إلى بني أسد بن خزيمة ومن تآلف إليهم من أحياء مصر: "إنّ لكم حماكم ومرعاكم، ولكم مفيض السما حيث انتهى، وصديع الأرض حيث ارتوى، ومهيل الرمال وما حازت، وتلاع الحزن وما جاورت"⁽³⁾، ولقد تميزت المكاتبات في عصر صدر الإسلام بالإكثار من استعمال الألفاظ الإسلامية التي تضمنت معاني دينية شرعية جديدة كألفاظ الفتح والغنمة، والشهادة، والمؤمن والكافر والفاسق...⁽⁴⁾، وأما الجمل في الرسائل فقد جاءت قصيرة ومتوازنة في الطول، لتكون أسرع في تأدية الفكرة، وأقوى في التأثير، وأبقى في النفس⁽⁵⁾، حيث صيغت هذه الجمل بأساليب لغوية مناسبة للموضوع، ومن هذه الأساليب أسلوب الدعاء، كما في رسالة كاتب إلى آخر: "أعارني الله حياتك، وأعاذني من ارتجاعها..."⁽⁶⁾ وكذلك في رسالة كاتب: "أطال الله بقاء الوزير لظلم يزيله..."⁽⁷⁾.

ومن الأساليب الواردة أسلوب الشرط، كما في رسالة لكاتب: "إن كان غمّ معروفك نابياً عني فإني راض من وابل نائلك بطلّه..."⁽⁸⁾، ومثلها رسالة علي بن عبيد الريحاني إلى صديق له: "... فإذا تمكّن الخوف ظننتُ، وإذا خطر الرجاء خفت"⁽⁹⁾.

(1) المصدر نفسه، ج9، ص 142-143.

(2) مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، مصدر سابق، ص 312-313.

(3) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج1، ص 217-218.

(4) رضا، غانم جواد، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، مصدر سابق، ص 141.

(5) الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، مصدر سابق، ص 405.

(6) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص 176.

(7) المصدر نفسه، ج6، ص 177.

(8) المصدر نفسه، ج4، ص 133.

(9) المصدر نفسه، ج7، ص 32.

وقد وردت بعض الرسائل بأسلوب الشرط المكرر، كما في رسالة بعض الكتاب إلى صديقه، وقد تأخر عنه كتابه: "إن كنت لا تحسن أن تكتب فهذه زمانة، وإن كنت تكتب ولا تكتب إخوانك فهذا كسل، وإن كان ليس لك قرطاس وداوة، فهذا سوء تدبير، وإن اعتذرت بعدما كتبت إليك فهذه وقاحة"⁽¹⁾.

وقد برز أسلوب الأمر، وغالباً ما يكون في الرسائل السياسية، ويصدر من الأعلى إلى من هو دون، لذلك يحمل صفة الإلزام كما في رسالة معاوية إلى زياد: "اعزل حريث بن جابر، فإني ما أذكر فتنة صفيين إلا كانت حزازة في قلبي..."⁽²⁾.

وكذلك الأسلوب في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية: "الزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق..."⁽³⁾ وفي رسالة له إلى معاوية أيضاً: "الزم خمس خصال..."⁽⁴⁾.

كما ورد أسلوب القسم في مضامين بعض الرسائل، وذلك في رسالة كتبها عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه بعذاب أناس لا يؤدون ما عليهم من خراج، فكتب: "...فو الله لأن يلقوا الله بخيانتهم أحب إليّ من أن ألقى الله بعذابهم"⁽⁵⁾، ومنها أيضاً رسالة ابن المعتز إلى رجل يذمه: "...فو الله ما يفصح عنها لكنه يصح عليها وأنا والله أصونك عنه..."⁽⁶⁾.

كما ورد أسلوب النفي في بعض الرسائل، وذلك في رسالة بكر بن عبد الله المزني إلى عبد الرحمن بن زياد: "حق لمن عمل ذنباً لا عذر فيه، وخاف موتاً لا بدّ منه..."⁽⁷⁾ كذلك ورد أسلوب النهي في مضامين بعض الرسائل، وذلك في رسالة كتبها الأحنف إلى آخر: "...ولا تجعل الرجال أوصياءك"⁽⁸⁾.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص 82.

(2) المصدر نفسه، ج9، ص 78.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص 138.

(4) المصدر نفسه، ج7، ص 157.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص 132.

(6) المصدر نفسه، ج7، ص 201.

(7) المصدر نفسه، ج4، ص 181.

(8) المصدر نفسه، ج4، ص 199.

الخصائص العامة

اختلفت السمات العامة بعض الشيء في رسائل هذا الكتاب وذلك لاختلاف عصورها وأنواعها وموضوعاتها.

فالرسائل في عصر صدر الاسلام اتسم شكلها الخارجي بسهولة الألفاظ ووضوح المعاني، والقصد إلى الغرض دون إسهاب أو تعقيد⁽¹⁾.

ويبدو ذلك واضحاً في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني أسد بن خزيمة ومن تألف إليهم من أحياء مصر: "إن لكم حماكم ومرعاكم، ولكم مفيض السما حيث انتهى وصديع الأرض حيث ارتوى، ولكم مهيل الرمال وما حازت، وتلاع الحزن وما جاورت"⁽²⁾. وقد اتسم بعضها بالإيجاز والاسهاب وفق ما يقتضيه المقام، وما يستدعيه الحال، وجرت عليه جل الرسائل النبوية، الاقتضاب والتركيز في نقل الخبر، وعرض فحوى الرسالة -غالباً- دون مقدمات⁽³⁾.

ومن السمات العامة في رسائل عصر صدر الإسلام تأثرها بالألفاظ والمعاني الإسلامية والتي وردت في مضامينها، كما في رسالة علي بن ابي طالب رضي الله عنه إلى العباس بن عبد المطلب، فكتب: "أما بعد، .. فليكن سرورك بما نلت من أمر الدنيا فلا تكن به فرحاً، وما فاتك منها فلا تكن عليه جزعاً. وليكن همك لما بعد الموت"⁽⁴⁾ وكذلك في رسالته إلى سلمان الفارسي وهو يحذره من الدنيا فيقول فيها: "أما بعد، فإن مثل الدنيا مثل الحية لين مسّها، قاتل سمّها، فأعرض عما يعجبك منها ..."⁽⁵⁾.

كما بقيت الرسائل في العصر الأموي موسومة بالإيجاز والترسل في كثير من حالاتها، اكتفاءً بتأدية المعنى بأقصر عبارة، ومن غير إطناب أو تكرير أو تفضيل⁽⁶⁾، إضافة إلى تأثرها بالجانب الديني تأثراً مباشراً، كما في رسالة الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب: "إن لله لا يطالب خلقه بما قضى عليهم وقدره، ولكنه يطالبهم من حيث نهى

⁽¹⁾ (رضا، غانم جواد، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية لعصر الأموي، مصدر سابق، ص 143.

⁽²⁾ (التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج1، ص217-218.

⁽³⁾ (انظر: رضا جواد، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، مصدر سابق، ص 145.

⁽⁴⁾ (التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص 156.

⁽⁵⁾ (المصدر نفسه، ج7، ص 164-165.

⁽⁶⁾ (الحوفي: أحمد، أدب السياسة في العصر الأموي، مصدر سابق، ص 394.

وأمر، فطالب نفسك من حيث يطالبك ربك ففتح⁽¹⁾، وكذلك الحال في الرسائل المنقولة من وإلى الولاة وإن كانت رسائل سياسية، فالطابع الديني له وجود فيها، كما في رسالة عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز كتب فيها: "أما بعد، فإن ناساً قبلنا لا يؤدون ما قبلهم من الخراج إلا أن يمسه شيء من العذاب"⁽²⁾.

أما رسائل العصر العباسي، فمن الممكن القول بأنها تشابهت في ركانتها الأساسية من حيث المقدمة والخاتمة مع سابقتها في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، مع وجود اختلاف في بعض ألفاظ هذه الركائز نتيجة للتوليدات التي طرأت على رسائل هذا العصر، وفي الوقت نفسه تميزت بمظاهر أخرى في بعض موضوعاتها، وقد يعزو الباحث ذلك لكثرة تنوعها، حتى أخذت سماتٍ غير السمات الدينية والسياسية، كالجانب العاطفي الذي تتضمنه الرسائل الإخوانية، إضافة إلى تضمينها بعض الألفاظ المسجعة كما في رسالة أحد الأدباء إلى أخ له: "إنك من جوارحي يماني، ومن سوانحي يقيني"⁽³⁾.

ثالثاً: الخطب

أ- بناؤها

اختلفت بنية الخطبة باختلاف عصورها، فالخطب الجاهلية اختلفت أبنيتها عن الخطب الإسلامية، لاختلاف موضوعاتها.

ففي خطبة قبيصة بن مسعود الشيباني في يوم ذي قار، وهو يحرض قومه على القتال، فيقول: "الحذر لا يغني من القدر، والندية أغلظ من المنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر خير منه وأكرم من الدبر، يا بني بكر حاموا فما للمنايا بدّ، هالك معذور خيرٌ من ناج فرور"⁽⁴⁾.

نجدها متكونة من فقرات، مسجعة، متوازنة، يجمعها في وحدة تامة جوّها، والغرض الذي سيقّت لأجله⁽⁵⁾، فقد بنيت الخطبة على ألفاظ مسجوعة مثل (الحذر، القدر، الدنية، المنية، الثغر، الدبر، معذور، فرور) وهذا السجع غالب على الخطب الجاهلية، إضافة إلى أن جملها جاءت متوازنة المبنى تبعاً للمعنى المراد الذي تضمنته كل فقرة من الفقرات، وكذلك خلت الخطبة من المقدمة والخاتمة التي سوف نراها في الخطب الإسلامية.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، ج6، ص 132.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 207-208.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص 178.

(4) المصدر نفسه، ج 7، ص 190.

(5) شلق، علي، مراحل تطور النثر العربي، مصدر سابق، ص 130.

أما الخطب الإسلامية، فقد قامت بنيتها على ركائز ثلاث: المقدمة، والعرض ثم الخاتمة، وقد حوت هذه الركائز على ألفاظ شكلت البنية العامة للخطبة الإسلامية، وهي ألفاظ قائمة على التوافق المعنوي والبنوي وجاءت متناسبة مع موضوع الخطبة حيث يبدأ البناء متماسكاً حتى الخاتمة. فأما المقدمة فقد بدأت بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومثال ذلك خطبة حذيفة اليماني رضي الله عنه لما دخل المدائن، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد وآله وصحبه، قال: "إن الدنيا دار هدامة، ومنزلة قلعة والسير بكم إلى دار المقامة..."⁽¹⁾ وكذلك خطب خالد بن عبد الله يوماً، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: "يا أيها الناس، تتافسوا المكارم، وسارعوا إلى المغام، واشتروا الحمد بالجود..."⁽²⁾.

وقال مالك بن دينار: غدوت إلى الجمعة فقعدت قريباً من المنبر فجاء الحجاج، فصعد المنبر، فذكر الله وحمده ومجده وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: "امرأ اتهم نفسه، امرأ اتخذ نفسه عدوّه، امرأ أخذ بعنان عقله..."⁽³⁾.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لما استخلف عمر صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "يا أيها الناس إني نظرت إلى الإيمان فوجدته يقوم على أربع خصال..."⁽⁴⁾

ومن أبنية الخطب لفظة (أما بعد) وهذه اللفظة تأتي بعد التحميد والثناء والصلاة على النبي، وقبل عرض الموضوع مباشرة، وهي إشارة للدخول في موضوع الخطبة، كما في خطبة عتبة بن عروان عند فتح الأبلّة، وقد قال فيها: "أما بعد، فإننا الدنيا قد تولت حذاء مدبرة وقد آذنت أهلها بصرم..."⁽⁵⁾، وكذلك خطبة زياد بن أبيه على المنبر، وهو يقول في خطبته البتراء: "أما بعد، فإننا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي ملكنا..."⁽⁶⁾.

ومن مستهلات الخطب أيضاً الدعاء بلفظة (اللهم) كما في خطبة إبراهيم بن عبد الله ابن الحسن في يوم عيد، وهو يقول "اللهم إنَّ هذا يوم أنت ذاكر فيه آباءً بأبناء وأبناءً بآباء، فاذكرنا عندك بمحمد صلى الله عليه وسلم"⁽⁷⁾

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج7، ص 123.

(2) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 4، ص 162.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص 16، 301.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص 140.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص 140.

(6) المصدر نفسه، ج 2، ص 240.

(7) المصدر نفسه، ج 4، ص 20.

كما استهلّت بعض الخطب بآية قرآنية من كتاب الله عز وجل، وذلك في خطبة معاوية حيث قال: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم"⁽¹⁾، فلا تلو مني إذا قصرت في أعطياتكم؟..."⁽²⁾

وأما العرض، فقد بنيت الكثير من عباراته على التضمين من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، كما في خطبة معاوية في مقدمه المدينة، فقال: أما بعد، فإننا قدمنا إلى صديق مستبشر، وعدو مستبصر، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون (فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)،..."⁽³⁾

وقد تضمنت بعض أبنية الخطب أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كما في خطبة النعمان بن بشير على المنبر، وهو يقول: "أيها الناس خذوا على أيدي سفهائكم فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن قوماً ركبوا في سفينة فاقتسموها وأخذ كل رجل مكاناً، فأخذ بعضهم الفأس فنقر مكانه، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: مكاني أصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يده نجوا، وإن تركوه هلكوا"⁽⁴⁾.

وقد نلحظ في بعض أبنية الخطب التكرار في النداء بلفظة (يا أيّها)، وهو أسلوب نداء بطريقة التوكيد يراد منه جلب أنظار الناس وأسماعهم إلى الموضوع، كما في خطبة يزيد بدمشق حيث قال: "أيها الناس سافروا بأبصاركم كرّ الجديدين، ثم أرجعوها كليلّة عن بلوغ الأمل، وإنّ الماضي عظة للباقي... أيها الناس، أمس شاهدٌ فاحذروه، واليوم مؤدب فاعرفوه، وغداً رسول فأكرموه..."⁽⁵⁾ وكذلك تكررت هذه اللفظة كما في خطبة سديف حيث قال: "قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة، وإمامتنا غلبة بعد المشورة، وعهدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة واشتريت المعازف والملاهي بسهم اليتيم والأرملة... اللهم قد استجيد الباطل وبلغ نهيته... اللهم فأتح له من الحق يداً حامدة تبدد شمله..."⁽⁶⁾

وأما الاختتام، فقد يأتي بما يناسب المقام من الدعاء للمخاطبين، أو السلام عليهم، أو بتمجيد الله والثناء عليه أو نحو ذلك⁽⁷⁾ لذا نرى أن يزيد بن الوليد اختتم خطبته بالدعاء

(1) الحجر: 21.

(2) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 9، ص 83.

(3) التوبة: 58.

(4) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 5، ص 202.

(5) المصدر نفسه، ج 8، ص 202.

(6) المصدر نفسه، ج 3، ص 90-91.

(7) الحاج حسن، حسين، أدب العرب في صدر الإسلام، مصدر سابق، ص 124.

والاستغفار في خطبته التي قال فيها: "أيها الناس، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا وفاء ينقض عهد الله تعالى، فمن أطاع الله فأطيعوه، فإذا عصى الله فهو أهل أن يعصى ويقتل، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، إنه واسع كريم"⁽¹⁾.

واختتم المطرّف بن عبد الله الشّخير خطبته في مسجد البصرة بالسلام، فقال: "أيّها الناس، إن هذين الرجلين - يعني طلحة والزبير - لمّا أضلّا دينهما ببلادهما جاءا يطلبانه في بلدكم... والسلام"⁽²⁾.

وقد اختتم عتبة بن غزوان خطبته بالاستعانة بالله، وقال ذلك في خطبته لأهل مصر: "قد طالت معاتبتنا إياكم بأطراف الرماح، وظلمات السيوف، حتى صرنا شجىً في لهاتكم... وبالله نستعين"⁽³⁾.

أما من حيث الإيجاز والإطالة في الخطب، فقد جاء لمقتضى الحال والموضوع الذي تتضمنه الخطبة، فمن الخطب الموجزة التي وردت في هذا الكتاب خطبة الحجاج حيث قال: "أيها الناس، اتقوا الغبار فإنه سريع الدخول بطيء الخروج"⁽⁴⁾، حيث جاء هذا الإيجاز في الخطبة تبعاً لموضوعها، فالموضوع مجرد تحذير من شيء معين، فلا داعي إلى الإطالة ما دام أن الفكرة وصلت المتلقي.

أما الخطب الطوال فغالباً ما تكون في الخطب السياسية بصورة عامة، كخطب الأحداث وخطب الفتوح وخطب المبايعات، لذا نجد أن الخطب في العصر الأموي اتسمت بالإطالة بعض الشيء نتيجة للظروف التي استجدت حول الخلاف على السلطة، مما دعت الخطباء أن يبينوا للناس ما يدور من حولهم من أحداث، وهذه الكثرة في الأحداث دعت الخطيب إلى توضيح المسائل وشرحها لإفهام الناس وإقناعهم فتطول الخطبة، ومن أمثلة ذلك خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك عند مقتل الوليد بن يزيد، ومنها أيضاً الخطبة المشهورة المعروفة بالبتراء خطبة زياد بن أبيه، حينما اشتد الصراع والخلاف على السلطة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص 42.

(2) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص 42.

(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 170.

(4) المصدر نفسه، ج 9، ص 36.

ب - أسلوبها

1 - الصورة

حفلت الخطب الإسلامية بصور بيانية أسهمت في قوة الإقناع واستمالة النفوس، نتيجة لتماسك المعاني وربط الجمل، ببعضها مما أفضى إلى حسن التوافق بين موضوع الخطبة ومضمونها، حيث جاء الخطيب بصور وأساليب بيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، وهي جزء من عبارات متناسقة أسهمت في إيصال الفكرة وتقريب الصورة بأسلوبها البياني، فخرجت الخطبة متماسكة المبنى لتماسك اللفظ والمعنى.

ومن الأساليب البيانية التي ظهرت في خطب هذا الكتاب، أسلوب التشبيه الذي جاء لتقريب صورة إلى أخرى بطريقة لفظية لوجود الصلة المعنوية التي تربط المشبه بالمشبه به. كما في خطبة عتبة بن غزوان في وصف الدنيا، حيث قال: "أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بتصرم، وولت حذاء، فلم يبقَ فيها إلا صُباة كصُباة الإناء..."⁽¹⁾ حيث شُبّهت الدنيا بصباة ماء لا شترأكهما بقصر ما بقي منها.

ومن صور التشبيه أيضاً، كما في خطبة يزيد في دمشق، فقال فيها: "أيها الناس، أمس شاهدٌ فاحذروه، واليوم مؤدب فاعرفوه... فإن أعمالكم مطيات أبدانكم، والصراط ميدان يكثر فيه العثار..."⁽²⁾، حيث شبه الصراط بميدان الحرب لوجود قرينه العثار التي تربطهما. وجاءت أيضاً في خطبة الحجاج التي قال فيها: "أيها الناس، إنكم أغراضٌ حِمام... وحثكم حثٌ مستقص"⁽³⁾

وجاء في بعضها أسلوب الاستعارة، كما في خطبة قطري بن الفجاءة في وصف الدنيا، فقال: "ما نال أحدٌ منها حبرةٌ إلا وأعقبته عبرةٌ... إلا هطلت عليه مزنَةٌ بلاء"⁽⁴⁾ فقد استعير لفظة (مزنَة) وهي الغيمة التي تنقل بالماء لكثرة الابتلاءات.

وقد نجد في بعض الخطب استعارة في عبارة واحدة، كما في خطبة يزيد بدمشق، فقال: "يا أيها الناس، سافروا بأبصاركم كرّ الجديدين..."⁽⁵⁾ فقد أبقى المشبه وهي الأبصار وحذف المشبه به وهي الأبدان وأبقى شيئاً من لوازمه وهو السفر.

⁽¹⁾ (التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 5، ص 21.

⁽²⁾ (المصدر نفسه، ج 8، ص 202.

⁽³⁾ (المصدر نفسه، ج 5، ص 191.

⁽⁴⁾ (أنظر: المصدر نفسه، ج 6، ص 95.

⁽⁵⁾ (المصدر نفسه، ج 8، ص 202.

كما ظهرت الكناية أيضا في خطبة عمر بن عبد العزيز، وهو يقول: "أيها الناس، إن يكن لأحدكم رزق في رأس جبل، أو حضيض أرض يأتيه، فاجملوا في الطلب"⁽¹⁾، فرأس الجبل كناية عن البعد، وحضيض الأرض كناية عن القرب.

وكذلك في خطبة معاوية: "يا معشر قريش، ما بال الناس لأم وانتم لعلات ..."⁽²⁾ كناية عن وحدة الناس وتفرق قريش.

ومنها جاء على أسلوب المجاز، كما في خطبة زياد في الناس، حيث قال: "الأمور جارية بأقدار الله... وكلٌ يجري إلى أجل وكتاب، ويصير إلى ثواب وعقاب"⁽³⁾، فقد ذكر اللزوم وهو الثواب وأراد الجنة، وذكر اللزوم وهو العقاب وأراد النار.

2- اللغة

جاءت ألفاظ الخطب ببساطة وعفوية تامة تتناسب مع المعنى المقصود لإيصال الفكرة بعبارات تجري على لسان الخطيب بطريقة انسيابية، ومما جعل هذه الألفاظ تأتي بهذه الطريقة مناسبتها لمجريات الأحداث عبر عصورها، فاستطاع الخطيب أن يأتي بالآفاظ تتناسب الأحداث، إضافة إلى أن الخطبة فنٌ شفاهي يوجه بصورة مباشرة وعامة، فلا بد أن تتسع ألفاظها إلى إفهام الجميع، ومن ذلك نجد أن الخطباء عمدوا على تخير الألفاظ السهلة والواضحة في معانيها حتى يضمن لهم إيصال الفكرة المقصودة؛ لذلك نجد الكثير من الخطب الإسلامية استمدت ألفاظها من كتاب الله عز وجل ومن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أسلوب من أساليب الاستمالة والإقناع.

كما نجد أن الكثير منها تجملت بتألف الألفاظ في نقل الأفكار، وإيصال المعاني بطريقة الجرس والسجع العفوي، كما في خطبة الإمام علي رضي الله عنه في صفين، وهو يحض الناس على القتال فيقول: "معاشر المسلمين، استشعروا الجراءة، وعضوا الأصوات، وتجليبوا بالسكينة، واكملوا الأمة، وأقلقوا السيوف في الأغمار قبل السلة، والحظوا الخزر، وأطعنوا الشزر، وكافحوا بالظبي، وصلوا السيوف بالخطي، والبنان بالرماح، فإنكم بعين الله ومع ابن عم نبيه"⁽⁴⁾

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص 189.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص 36.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص 70.

(4) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص 77.

فلو نظرنا في هذه الخطبة، نجد أن ألفاظها جاءت لتداعب أسماع المقاتلين، لما فيها من إيقاعات مؤثرة، تقضي إلى رفع معنويات الجند بطريقة حماسية، تترك وقعا في النفوس إضافة إلى حروفها الانفجارية التي زادت من قوة الألفاظ. فكل هذا جاء ليناسب الحدث الذي قيلت من أجله الخطبة.

أما الجمل في الخطب، فقد وردت متباينة، تتسم تارة بالإيجاز المكثف مع قوة المعنى ومرة بالإطالة بعض الشيء، وهذا ما يستدعيه الأسلوب اللغوي للجمل، فجملة الأمر أو النهي تكون في العادة أكثر إيجازاً من جملة الشرط تبعاً لمقتضيات الأساليب اللغوية. ومن هذه الأساليب: أسلوب الشرط، كما في خطبة زياد على المنبر: "ومتى يهلكوا تهلكوا"⁽¹⁾.

وخطب الحجاج أيضاً، فقال: "ومن لم يأخذ أهية الحذر، نزل به مرهوب القدر"⁽²⁾، ومنها أيضاً خطبة لخالد بن الوليد يقول فيها: "أيها الناس، من جاد ساد ومن بخل رذل..."⁽³⁾. وقد ورد أسلوب الشرط بصيغة التكرار أيضاً، كما في خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إن استغنيت عفت، وإن افتقرت أكلت..."⁽⁴⁾. كما ورد أسلوب الأمر في مضامين الخطب، فقال معاوية في خطبة له: "أيها الناس، أجملوا في الطلب..."⁽⁵⁾ وقد تكرر الأسلوب نفسه في الخطبة الواحدة، كما في خطبة خالد بن عبد الله حيث قال: "أيها الناس، تنافسوا المكارم، وسارعوا إلى المغانم، واشتروا الحمد بالجد..."⁽⁶⁾

كما ورد أسلوب التوكيد بطريقة الاستثناء المفرغ لإفادة معنى الحصر، وذلك في خطبة عتبة بن غزوان، فقال في نهايتها: "ثم أصبحنا وما منا أحد إلا على كورة من هذه الكور"⁽⁷⁾.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 2، ص 240.

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 162.

(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 191.

(4) المصدر نفسه، ج 6، ص 14.

(5) المصدر نفسه، ج 2، ص 98.

(6) المصدر نفسه، ج 4، ص 162.

(7) المصدر نفسه، ج 5، ص 21.

ثم نجد الأسلوب نفسه في خطبة المطرف بن عبد الله بن الشخير حينما قام خطيباً بأهل البصرة عند قدوم طلحة والزبير عليها، فخطب الناس، وقال: "وما جاء إلا لينال دنياهم بدينكم..." (1).

ومن الأساليب الواردة في مضامين الخطب، أسلوب النفي، كما في خطبة عتبة، حيث قال: "يا أهل مصر لا مبراً من الذنب، ولا عتق من الرب..." (2) وكذلك ورد أسلوب النهي، كما في خطبة خالد بن عبد الله حيث قال: "ولا تكسبوا بالمطل ذماً، ولا تعتدوا بمعروف لم تُجعلوه" (3).

واستخدمت بعض عبارات الخطب أسلوب الاستفهام المكرر، كقول الحجاج في خطبته: "أيها الناس، ... فماذا عبأتم للرحيل؟ وماذا أعددتُم للنزول..." (4) وقد برز الأسلوب نفسه بصيغة الاستفهام الذي يفيد التقرير مع التكرار في خطبة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يخاطب الأنصار، فيقول: "ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله تعالى بي؟ ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله تعالى بي؟ ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله تعالى بي؟..." (5). أما من حيث المعاني فقد اختلفت معاني الخطب الجاهلية عنها في الخطب الإسلامية، فالمعاني في خطابة العصر الجاهلي قائمة على التنافر والتناحر والثأر والانتقام من الخصم، كما رأينا ذلك كله في خطبة قبيصة بن مسعود الشيباني في يوم ذي قار، وهو يحرض قومه على القتال بأسلوب حماسي خالٍ من معاني القيم الدينية والاجتماعية والأخلاقية.

أما المعاني في الخطب الإسلامية، فقد توسعت باستحداث الكثير منها، وعزو حقول جديدة فيها لم تؤلف قبل الإسلام، مع حسن تنظيمها وعرضها، تبعاً للرفق الفكري والثقافي، الناشئ عن هدى القرآن، مع التأثر بالمعاني القرآنية، استمداداً، واقتباساً، واستشهاداً، والميل أحياناً إلى الاستعانة بأساليب التخييل، كالتشبيه والاستعارة والكناية وبخاصة في أواخر عهد النبوة والراشدين. (6)

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 6، ص 42.

(2) المصدر نفسه، ج 5، ص 170.

(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 162.

(4) المصدر نفسه، ج 5، ص 46.

(5) المصدر نفسه، ج 9، ص 189.

(6) الهادي، صلاح الدين، الأدب العربي في عصر النبوة والراشدين، مصدر سابق، ص 195.

الخصائص العامة

من الواضح أن التشابه الظاهر في الأسلوب بين الرسائل والخطب كان تشابهاً أيضاً في الموضوعات إلى حد بعيد، إلا أن الخطبة تُعد مسبقاً أو ترتجل ارتجالاً نظراً لتمكن الخطيب وقدرته، في حين الرسالة تكتب كتابة منذ البداية، ومن هنا يبدأ التمايز بين النوعين النثريين من حيث الوظيفة والطريقة والغاية والوسيلة، غير أن نثرها يبقى على درجة واحدة من حيث الأساليب البلاغية والسمات العامة⁽¹⁾.

أما من حيث الخطبة نفسها فقد تباينت سماتها بين عصريها الجاهلي والإسلامي، فالخطبة الجاهلية رائعة اللفظ خلابة العبارة واضحة المنهج، قصيرة السجع غاية في الرقة والعذوبة، والمعاني رائعة مألوفة⁽²⁾، كما أنها فقدت عنصر الوحدة الموضوعية، وهذا الشيء عام، وقاسم مشترك بين الخطباء⁽³⁾، كما أنهم كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة، ويغنون التجويد في كلامهم⁽⁴⁾، وتقدم الخطابة الجاهلية على البديهيّة والارتجال، وتمتد موضوعاتها ومعانيها من أغراض حياتهم مع قوة العبارة وفصاحتها، واضطرابها في مراعاة العناصر الأساسية في الخطبة، كالمقدمة والغرض والخاتمة⁽⁵⁾.

وهذه السمات نلاحظها في خطبة قبيسة الشيباني في يوم ذي قار وهو يحرض قومه على القتال، فيقول: "الحذر لا ينجي من القدر، والدنية أغلظ من المنية، واستقبال الموت خيرٌ من استنباره والطعن في الثغر خيرٌ منه وأكرم من الدبر، يا بني بكر حاموا فما من المنايا بد، هالك معذور خير من ناج فرور"⁽⁶⁾.

ومن السمات العامة أيضاً لهذه الخطب أنها اعتمدت على السجع، وقصر فقراتها مع غلبة الإيجاز عليها وخلوها من اللحن وكثرة الانتقال بين أفكارها⁽⁷⁾.

أما الخطابة الإسلامية، فقد تتسم بأنها تقوم على الإقناع والتأثير في النفوس، بالأدلة الساطعة، والبراهين الناصعة، وكثيرة الاستشهاد بالقرآن الكريم... وأنها تلتزم في مبدئها سمناً واحداً، وهو حمد الله وتوحيده والثناء عليه بما هو أهله، وقد ينضم إلى ذلك الصلاة على

(1) (المقداد، محمود، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، مصدر سابق، ص279.

(2) (حامد، محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص219.

(3) (المصدر نفسه، ص223.

(4) (أنظر: ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص418.

(5) (أنظر: الهادي، صلاح الدين، الأدب في عصر النبوة والراشدين، مصدر سابق، ص163.

(6) (التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج7، ص190.

(7) (حامد، محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص 222-223.

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ⁽¹⁾، وهذا ما نجده في خطبة معاوية في قومه، فيقول: "إن الله تعالى يقول في كتابه (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)، فعلام تلوموني إذا قصرت في أعطياتكم" ⁽²⁾.

وكذلك في خطبة إبراهيم بن عبد الله بن حسن في يوم عيد، فيقول: "اللهم إن هذا يوم أنت ذاكرٌ فيه أباء بأبناء وأبناء بأبَاء، فاذكرنا عندك بمحمد صلى الله عليه وسلم" ⁽³⁾.

رابعاً: التوقيعات

أ- بناؤها:

جاءت التوقيعات التي وردت في البصائر والذخائر مختلفة البنية، فمنها ما كان موجزاً إيجازاً شديداً، كالتوقيع بـ (نقطة)، ومنها ما جاء مؤلفاً من عبارة واحدة أو أكثر، وذلك بحسب مقتضيات الحال؛ لإيصال الفكرة التي تتناسب مع الموضوع الموقع فيه، ثم اتسمت بعض التوقيعات بأنها اختتمت بألفاظ معينة.

فلو أنعم القارئ النظر في التوقيعات لوجد أن بعضها اختتمت بعبارة (إن شاء الله تعالى)، ومن ذلك توقيع سهل بن هارون إلى مؤتمن، فوقع: "إني أئتمنتك على ديني، وأشركتك في أمانتي، ووضعك موضع الثقة، فقولك مقبول، وكتابك المعتمد عليه فيه تدبير أمور ناحيتك، فاعرف عظيم الخطر الذي أصبحت فيه، وأدّ أمانة الله عزّ وجلّ فيما أنت بسبيله، تُسعد في العاجل والآجل إن شاء الله تعالى" ⁽⁴⁾.

ووقع أيضاً: "نعم الشفيع في بقاء النعمة عليك حسن سيرتك، واعتماد الصيانة والعفاف، فدم على هذه الطريقة تبقّ لك النعمة. إن شاء الله تعالى" ⁽⁵⁾.

ووقع أيضاً: "إنّ أسرع النيران إلتهاباً أسرعها خموداً، فتأنّ في أمرك إن شاء الله تعالى" ⁽⁶⁾.

ووقع سهل ابن هارون أيضاً: "استدم بالشكر بقاء النعمة، وبالطاعة علو المنزلة، وإياك أن يورطك فيما لا بقيا معه عليه. إن شاء الله تعالى" ⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ (خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، مصدر سابق، ص 121.

⁽²⁾ (التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج9، ص83.

⁽³⁾ (المصدر نفسه، ج4، ص20.

⁽⁴⁾ (التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص127.

⁽⁵⁾ (المصدر نفسه، ج2، ص127.

⁽⁶⁾ (المصدر نفسه، ج2، ص127.

⁽⁷⁾ (المصدر نفسه، ج2، ص128.

ووقع أيضاً على النحو نفسه: "قد أعذرت إليك في التقديم، فالزم المحجة وتوقّ لزوم الحجة، وتوقع حلول المجازاة، إن شاء الله تعالى" (1).

ومن الملاحظ مما تقدم من توقيعات سهل بن هارون باختتامها بالمشيئة أنها جاءت مناسبة لموضوعاتها، وذلك أن موضوعاتها غلب عليها الطابع الديني والأخلاقي من نصح وإرشاد، وتمسك بطاعة الله عزّ وجلّ.

كما شكّلت الجمل الشرطية جانباً من بنية هذه التوقيعات، فجاء تحقيق جواب الشرط مقيداً بفعله، وهذا الأسلوب أفضى على المعنى قوة ووقفاً في نفس الموقع له، وهو أيضاً حافز معنوي قائم على مبدأ الجزاء من جنس العمل، ومن ذلك توقيع ولي الدولة إلى النعمان بن عبد الله في طلب الاستزادة: "قد أعجبتك نفسك فلست تعرفها، فإن أحببت أن أعرفكها عرفتك" (2).

ووقع أبو صالح الوزير إلى عامل: "قد تجاوزت لك، وإن عُدت أعدتُ إليك ما صرفته عنك" (3).

ووقع أيضاً إلى عامل اعتدّ بكفاية وزاد: "أدلت فأمليت، فاستصغر ما فعلت تبلغ ما أمليت" (4).

وقد تضمنت بعض التوقيعات أكثر من جملة شرطية في الموضوع الواحد، كما في توقيع الفيض على ظهر رقعة معتذر: "التوبة للمذنب كالدواء للمريض، فإن صحّت توبته كملّ الله تعالى شفاؤه، وإن فسدت نيّته أعاد الله تعالى داءه" (5).

وقد جاءت بعض التوقيعات مبنية على جملتين مترابطتين في اللفظ، وذلك لترابط المعنى بينهما لبيان السبب، كما في توقيع أحمد بن أبي خالد في رقعة محبوس: "غررتنا بالله فحبسناك الله" (6).

ومنها ما رفع إلى كسرى: خذلتكم ثم سميتكم فلاناً مخذولاً، فوقع: "لأنه تظلم منا قبل أن يتظلم إلينا" (7).

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص170.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص134.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص158.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص158.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص1221.

(6) المصدر نفسه، ج6، ص175.

(7) المصدر نفسه، ج6، ص221.

وكذلك تضمنت بعضُ التوقيعات جملاً مبنية على أساليب التقرّيع والتوبيخ والاختتام بالدعاء على المقصود، ومنها توقيع أبي الحسن علي بن عيسى الجراح إلى عامل بالشعر، فوقع: "قد كثرت منك الشكّية، وعظمت فيك البلية، بفساد طويتك، ورداءة نيتك، وليس مثلك من يرتب لمعالي الأمور، ولا من يُعتمدُ في صلاح الثغور، وقد وقفت من خبرك على التجلي منه، وعرفتُ حقيقة ما تنهى إليّ عنه، فانصرف خسيس القدر، بتّ الله منك العُمر"(1). ووقع على النحو ذاته أيضاً: "وليتك من عملي جليلاً، وكنت حقيراً قليلاً، ومهيناً ذليلاً، حصيراً كليلاً، فانصرف عليك اللعنُ طويلاً"(2).

وختم بعضها بجملة الدعاء للمقصود لا عليه، كما في توقيع الفضل بن سهل إلى قائد جيش: "ما رأينا صنعا أحسن، ولا نصراً أعزّ، ولا فتحاً أفضل، من نصر الله إياك وصنعه لك، وفتحه عليك، فتولّى الله أمرك بأحسن مما ابتدأك به"(3).

وقد جاءت بعض الجمل مبنية على ثنائية التوقيع، كما في توقيع طاهر بن الحسين في رقعة رجل سألها فيها، فوقع: "ما شاء الله كان، فوقع الرجلُ أسفلها: إن شاء الله المعروف"(4).

ب - أسلوبها:

1 - الصورة:

برزت الصورة في التوقيعات بشكل واضح وجلي، حيث أنها أصابت المعنى المراد، وذلك لما فيها من صور بيانية، كالتشبيه، والاستعارة والكناية والمجاز، والتي أعطت للتوقيع قوة في التأثير وجمالية في الأسلوب، إضافة إلى اختزالها الفكرة في كثير من الأحيان بأقل عدد من الألفاظ.

فأما من حيث أسلوب التشبيه، فقد ظهرت هذه الصورة البلاغية في الكثير من التوقيعات بأثرها المعنوي على الجملة، كما في توقيع الفيض بن أبي صالح على ظهر رقعة معتذر: "التوبة للمذنب كالدواء للمريض..."(5).

فالناظر في هذا التوقيع يجد فيه تشبيهين: الأول أنه جعل المشبه التوبة والمشبه به الدواء، وهذا التشبيه ظاهر، أما التشبيه الثاني فقد شبّه التوبة بالدواء، والمذنب بالمريض،

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج5، ص53.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص54.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص170.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص26.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص221.

فيكون المشبه توبة المذنب والمشبه به دواء المريض، فهذه الصورة المتلازمة بين المشبه والمشبه به كشفت عن مدى العلاقة المتلازمة بينهما.

ومن حُسْن التصوير في التشبيه أيضاً ما وقع به يحيى بن خالد البرمكي في رقعة رجل مليح الخط، رديء الكلام: "الخطُ جسمٌ روحه الكلام، ولا يُنتفع بجسمٍ لا روح فيه"⁽¹⁾. حيث أفادَ هذا التوقيع من ثنائية الجسم والروح، لوجود علاقة وصلة بين الخط والكلام، وهما الروح والجسد اللذان يشكلان وجهين لعملة واحدة توضح العلاقة الوطيدة بين المشبه والمشبه به"⁽²⁾.

أما أسلوب الاستعارة فقد ظهر أيضاً في التوقيعات، كما في توقيع الفضل بن سهل: "إن أسرع النيران إلتهاهاً أسرعها خموداً..."⁽³⁾.

حيث استعار الفضل بن سهل سرعة النيران لسرعة الغضب، لوجود قرينة تربطهما من حيث السرعة والإخماد، وذلك أن الغضب الشديد سرعان ما يخفّ وينتهي كالنار التي تلتهب بسرعة فتخمد، وهذه الصورة تعبير عن الحث على التأنّي، وعدم الاستعجال في إصدار القرارات التي تخصّ الأمور السياسية العامة، لأن هذا التوقيع صادرٌ عن وزير إلى أحد ولاته.

ومن صور الاستعارة التي جاءت للدلالة على معنى آخر غير المعنى المراد، كما في توقيع الفضل بن سهل إلى طاهر بن الحسين منتقاصاً منه في أمر أنكره عليه "يا نصف إنسان والله لئن أمرت لأنفذن، ولئن أبرمت لأبلغن"⁽⁴⁾، حيث استعار الموقع لفظة (نصف إنسان) للدلالة بها على معنى آخر غير المعنى الحقيقي الذي وضعت من أجله، وهو النقص في صفاته الخُلقية، حيث لا يوجد هناك نصف إنسان، وقد دلت على ذلك القرينة اللفظية.

وقد نجدُ صورة الاستعارة في توقيع ابن الزيات إلى عامل له: "توهمكُ شهماً كافياً، فوجدتكُ رسماً عافياً، لا محامياً ولا وافياً"⁽⁵⁾.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، المصدر سابق، ج8، ص52-53.

(2) انظر: الحراحشة، أميرة عبد المولى حمد، أدب التوقيعات في العصر العباسي، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت، المفرق: الأردن، 2004م، ص120.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص127.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص131.

(5) المصدر نفسه، ج8، ص26.

فصورة الرسم العافي الذي لا أثر له استعارة عن خلو الإنسان المقصود من كل الصفات الخيرية، وهذا أسلوب من أساليب التوبيخ والتهكم بطريقة الاستعارة اللفظية التركيبية.

كما برزت صورة الكناية في عدد من التوقيعات، ومنها توقيع الفضل بن سهل: "لا تجعلن توليتي إياك نظراً مني لك دون رجائي منك والكفاية والغناء والنصيحة، فتزل بك قدم ثورتك الندم"⁽¹⁾.

جاءت الكناية في عبارة "فتزل بك قدم" وهي كناية عن الانحراف عن الطريق السالك الذي يؤدي إلى المهالك. وهذا التوقيع موجّه إلى أحد الولاة بطريقة النصح والتوجيه وهو جزء من إدارة سياسة الحكم.

ومن صور الكناية أيضاً توقيع المنصور في رقعة رجل يسأله بناء مسجد في محلته: "من شرائط الساعة كثرة المساجد، فزد في خطاك تردد في الثواب"⁽²⁾.

الكناية في (فزد في خطاك) وهي كناية عن كثرة التردد إلى المساجد، وكثرة الصلاة فيها، فلم يصرح المنصور بأن العبرة ليست في كثرة المساجد، وإنما كنى بذلك بزيادة الخطى إلى المساجد.

كما برز المجاز في توقيع المنصور في رقعة رجل سأله شيئاً: "أتاك الله سعة تصون عرضك وتقي دينك"⁽³⁾.

فقد جاء المجاز في لفظة (سعة) وأراد بها كثرة المال، فاستعمل اللفظ في غير ما وضع له، وذلك لوجود قرينة لفظية دالة على ذلك.

2- اللغة:

جاءت ألفاظ التوقيعات سهلة وواضحة بعيدة عن التكلف والتعقيد، مركزة الإجابة وسريعة الوصول إلى ذهن القارئ، وهذا ما تقتضيه الحال لأن التوقيع لم يكن ليصدر عن عامة الناس، بل هو صادر عن الخواص كالخلفاء والوزراء والأمراء، وقد يتخير كل واحد ألفاظاً يراها مناسبة لموضوع التوقيع، لذا نرى بعضها يأتي بأسلوب المدح وآخر بأسلوب الذم

⁽¹⁾ التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص127.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ج2، ص18.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ج9، ص109.

وآخر بأسلوب التوجيه والنصح والإرشاد ومرة بأسلوب التهديد، وكل هذه الألوان يتخير لها ألفاظاً مناسبة لإيصال الفكرة وإصابة المعنى المراد.

وأما الجمل في التوقيعات فجاءت متناسقة تتسم بالإيجاز، حيث صيغت بأساليب لغوية مناسبة للمضامين، ولعلّ من أبرز هذه الأساليب اللغوية ما يأتي:

أسلوب النفي، كما في توقيع أبي صالح بن يزداد في وزارته إلى عامل "ليس عليك بأس ما لم يكن منه يأس"⁽¹⁾، إضافة إلى السجع الذي أضفى جمالية على النص لجعل من المتلقي أكثر تقبلاً لما فيه من جمالية في الصوت. ويبدو أن التوقيع جاء مناسباً لمقتضى الحال التي تتطلبها المشكلة، كونه صادراً عن وزير ينظر في المسألة للصالح العام.

ومن الأساليب البارزة في التوقيعات أسلوب النهي، كما في توقيع الفضل بن سهل وزير المأمون لأحد الولاة: "لا تجعلنّ توليتي إياك نظراً مني دون رجائي فيك..."⁽²⁾.

كما تضمنت بعض التوقيعات أسلوب الاستفهام المتضمن معنى النفي، كما في توقيع محمد بن عبد الله بن طاهر في قصة غلام أخذ مع فتیان في صحراء، فوقع: "ما السبيل على فتية خرجوا لمتنزههم، يقضون أوطارهم على قدر أخطارهم، ولعلّ الغلام ابن أحدهم أو قرابة بعضهم"⁽³⁾.

وقد ظهر أسلوب الطلب المتمثل بأفعال الأمر في طائفة من التوقيعات، كما في توقيع الفضل إلى مستميح: "كن في الباب يأتك الجواب"⁽⁴⁾.

وللأمر أسلوب ظاهرٌ ومحذوف في توقيعات بعض الوزراء، وذلك في توقيع الوزير الفضل بن سهل: "استدم بالشكر بقاء النعمة، وبالطاعة علوّ المنزلة..."⁽⁵⁾ والتقدير، واستدم بالطاعة علوّ المنزلة، وهذا الأسلوب من أساليب الإيجاز الذي أعطى بلاغة للنص مع حفاظه على المعنى العام للجملة.

ووقع أيضاً: "أجمل في الطلب تكفك المقادير ما هو كائن...."⁽⁶⁾.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص158.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص127.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص16.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص232.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص128.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص128.

وقد تكرر أسلوب الأمر مراتٍ عدة في التوقيع الواحد، وهو يدل على معنى التوكيد، وذلك في توقيع الفضل بن سهل: "وأثرُ كُتُبك، وابرَم الأخبار، واستعن بالله على تزيين نفسك، واحملها على الصيانة تسلم من قول العائب"⁽¹⁾.

الخصائص العامة:

ومما سبق من الكلام عن التوقيعات تبين أن لها سمات عامة يمكن تلخيصها بما يأتي:

1- الإيجاز:

يعدُّ الإيجاز السمة الأولى من سمات التوقيع لما فيه من صورة بلاغية واضحة تلتزم المعاني وتوصل الأفكار بأقل الألفاظ. وفي تفصيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى البرمكي لكتابه: إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا، وقال بعضهم: الزيادة في الحد نقصان، وقد قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز. قيل: وما الإيجاز؟ قال حذف الفضول وتقريب البعيد⁽²⁾.

وقالوا: لا تتفق كلمتين إذا كفتك كلمة⁽³⁾. وقال عبد الله كاتب المهدي في فضل الإيجاز خير الكلام ما قلّ ودلّ ولم يُمل. وكان يقول: عقول الرجال تحت أسنة أقلامهم⁽⁴⁾.

وقال عمرو بن بحر الجاحظ، ت 255هـ: درجت الأرض من العرب والعجم على إيثار الإيجاز وحمد الاختصار، وذم الإكثار والتطويل والتكرار، وكل ما فضل عن المقدار⁽⁵⁾. وقد ذكر الكلاعي الإيجاز متحدّثاً عنه في التوقيعات وهذا النوع من الكلام فيه عن التطويل والتكرار إلى الإيجاز والاختصار⁽⁶⁾.

ومن المحدثين الذين أشاروا إلى سمة الإيجاز في التوقيعات الفخوري عند حديثه عن قيمتها، فقال: للتوقيعات قيمة أدبية عظيمة، فهذا الإيجاز وهذه البلاغة، وهذا السمو في

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج2، ص170.

(2) العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، مصدر سابق، ص173.

(3) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ت 335هـ، أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، د.ط، المطبعة السلفية، مصر، 1341هـ، ص230.

(4) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ت 429هـ، خاص الخواص، تحقيق: حسن الأمين، د.ط، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص7.

(5) الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، ت 255هـ، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د.ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964م، ج4، ص151.

(6) الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور، ت 550هـ، إحكام صنعة الكلام، تحقيق: الدكتور محمد رضوان الدايدة، د.ط، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ص161.

المعنى، والقوة المختلجة في الألفاظ، كل ذلك أثبت أثراً في النفوس وأبعد صدى القلوب من خطاب وألف رسالة، إنها قنابل متفجرة، تتطلق شظاياه، عصارة حكمة أو لمع عقول⁽¹⁾.

وقال الحوفي: أوجز الخلفاء أقصر الإيجاز في توقعاتهم على ما يرفع إليهم من شكاوى، ورغبات لبيان رأيهم فيها، وتميزت توقعاتهم بالإيجاز، سواء كانت اختياراً لآية قرآنية، أو لحديث نبوي، أو لمثل سائر أو حكمة متداولة، أم كانت كلمة موجزة من إنشاء الموقع نفسه⁽²⁾.

وقد تحدث الدكتور محمد نبيه حجاب عن أصالة التوقعات وعروبته، بأن طابعها الموجز هو من سمات الأساليب السامية لا الآرية المطبّبة⁽³⁾.

وقد بالغ بعض الكتاب والأدباء في إيجازهم الشديد للتوقعات حتى أن بعضهم وقع بنقطة، كما في توقيع المأمون، وذلك أن رجلاً كان سابق الحاجّ فورّد مرة بعدما ورد غيره وكتب قصة يطلب رزقه، فلما قرأ المأمون وقع بنقطة ثانية تحت الباء فصار: "سابق الحاج"⁽⁴⁾ وجاءت طائفة من التوقعات في عبارة واحدة، كما في توقيع أنو شروان حين رُفِع إليه أن العامة تؤنب الملك في تقديمه فلاناً وليس له شرف أصيل ولا نسب، فوقع: "اصطنعنا له نسباً"⁽⁵⁾.

كما نجدُ الإيجاز في توقيع الإمام علي إلى ابنه الحسن: "رأي الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام"⁽⁶⁾.

ونظير ذلك أيضاً توقيع المعتز تحت دعاء بإطالة البقاء: "كفى بالانتهاه قصراً"⁽⁷⁾. ووقع أيضاً أحمد بن أبي خالد في رقعة يبين في إحقاقه للحق في حبس رجل، فقال: "غررتنا بالله فحبسناك لله"⁽⁸⁾، حيث أفصح الموقع عن رأيه بإيجاز اللفظ، وربما احتاج المعنى إلى كلام طويل.

ويبدو لنا مما سبق أن هذه الإيجازات جاءت مناسبة للمقام الذي يتبوّاه التوقيع في موضعه وموضوعه، حيث أصاب المعنى المراد بأقلّ الألفاظ التي من شأنها إيصال الفكرة.

(1) الفاخوري، حنّا، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، مصدر سابق، ص 398.

(2) الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، مصدر سابق، ص 395.

(3) حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مصدر سابق، ص 97.

(4) انظر: التوحيدي، البصائر والذخائر، ج 9، ص 117.

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج 9، ص 175.

(6) المصدر نفسه، ج 9، ص 16.

(7) المصدر نفسه، ج 1، ص 76.

(8) المصدر نفسه، ج 6، ص 175.

وهناك طائفة أخرى من التوقعات أوجزت بأكثر من عبارة، وهذه الزيادة لا تعني الإطالة، بل هي إيجاز يناسب المقام الذي يتطلبه الموضوع نفسه.

ومن هذه التوقعات توقيع لأبي صالح بن يزداد في العفو عن عامل: "قد تجاوزت لك، وإن عدت أعدت إليك ما صرفته عنك"⁽¹⁾.

وعلى الشاكلة نفسها توقيع المنصور في رقعة رجل يسأله شيئاً: "أتاك الله سعة تصون عرضك وتقي دينك"⁽²⁾.

وهناك توقعات أخذت بالإطالة بعض الشيء قياساً على سابقاتها، فهي أصبحت فقيرة أشبه برسالة قصيرة مترابطة المعاني متسلسلة الأفكار تصبُّ في معنى الإيجاز في كل تركيب من تراكيبيها.

ومنها ما وقع به علي بن عيسى إلى ابن قرانة العطار في قصة يسأله أن يكلم أمير المؤمنين المقتدر بالله حتى يصفح عنه، فوقع: "من تحقق بالوزراء، وجالس الأمراء، وداس بسط الخلفاء، وماتل الكبراء، وأمر ونهى في مجالس الرؤساء، بعقل يسير، وفهم قصير، ورأي حقير، وأدب صغير، كان خليقاً بالنكبة، وحريراً بالمصيبة، وجديراً بالمحنة، وأنا أتكلم إذا حضرني الكلام فيك بما يقربني إلى الله تعالى"⁽³⁾.

2- ملائمة المقال لمقتضى الحال

والبلاغة في التوقيع تعني أن يكون التوقيع مناسباً للحالة أو القضية التي قيل فيها⁽⁴⁾. فلو أمعنا النظر في التوقعات التي ذكرناها آنفاً لوجدنا أن كل توقيع جاء جواباً مناسباً لمقتضى الحال التي يتضمنها الكتاب المرفوع. وما الإيجاز الشديد والإطالة بعض الشيء إلا توضيح دعت إليها الحاجة للتوافق بين الطلب والرد واكتمالاً للصورة البلاغية. ففي توقيع يحيى البرمكي لابن سيابة في العفو: "قد عفونا عن الخائف لنفسه ببراءته، وأمرنا له بصلة تتبر ظلمته، وتؤنس وحشته، ووهبنا ماضيه لمستقبله، وسالفه لمستأنفه"⁽⁵⁾، نجد أن قبول العفو جاء موافقاً لحال الطلب، حيث أنه أصاب المعنى المراد، لأن الخائف لا يروم سوى العفو، إضافة إلى أنه أسدى إليه العطاء الجزيل ليكون عوناً له على أمور حياته.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج6، ص158.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص109.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص53.

(4) الدخيل، أحمد بن ناصر، فن التوقعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج3، ع22، ص1108.

(5) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ص125-126.

3- الإقناع:

هو أن يتضمن التوقيع من وضوح الحجّة وسلامتها، ما يحمل الخصم على التسليم، ومن قوة المنطق وبراعته ما يقطع على صاحب الطلب عودة المراجعة⁽¹⁾.

وهذا الأسلوب نجده في الغالبية العظمى من التوقيعات، وهو يعتمد على ما يتصف به الموقع من سرعة بديهية وتخير للألفاظ الواضحة، والقوة في المعاني، حتى يكون للتوقيع أثر واضح في نفس المتلقي، ولعلّ الإيجاز من أهم أسباب الإقناع، لأن الفطرة السوية تأنف الإطالة في كل شيء، وقد يتفاوت أسلوب الإقناع بين موقع وآخر، فالتركيز المعنوي والرأي الصائب وتقديم الحجج بالأدلة الكافية والمقنعة كفيلة بإقناع صاحب الطلب.

ففي توقيع طاهر بن الحسين في رقعة رجل يسأله فيها حاجة، فوقع له عليها: "ماشاء الله كان، فوقع الرجل أسفلها: إن الله شاء المعروف"⁽²⁾.

نجد أن صاحب الطلب لم يكن مقتنعاً بالجواب لأن الموقع لم يكن يقدم الحجج والأسباب بعدم صلته له، بل أنه علّقها بمشيئة الله عزّ وجلّ وإن هذه المشيئة سارية على جميع خلقه، لذا وقع صاحب الطلب بتوقيع آخر جواباً على التوقيع الأول عندما وجد نيّة في عدم تلبية طلبه، فوصله.

وهذه الحالة تردّ قليلاً في التوقيعات لأن السمة الغالبة على التوقيع أنه يترك أثراً واضحاً في نفس القارئ أو السامع؛ لما فيه من سمات عامة وخاصة تجعل من المتلقي أكثر قناعة.

ومن التوقيعات التي حملت خصيصة الإقناع المباشر توقيع أحمد بن خالد في رقعة محبوس: "غررتنا بالله فحبسناك الله"⁽³⁾.

خامساً: الوصايا

أ- بناؤها:

نجد في بناء هذه الوصايا تبايناً واضحاً من حيث الشكل والمضمون، ففي وصيّة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد لما وجهه إلى بعض غزواته: "استكثر من الزاد، واستظهر بالأدلاء، وأقلل الكلام، فإن لك ما وعي عنك...."⁽⁴⁾.

(1) الدخيل، أحمد بن ناصر، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، مصدر سابق، ص1108.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج1، ص26.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص175.

(4) انظر: التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج7، ص162.

نلاحظ في بناء هذه الجمل البسيطة قصراً متوازناً لم يؤثر على طبيعة لغتها، بل أعطاها تماسكاً أكثر من حيث اللفظ والمعنى.

وقد وردت بعض الجمل مركبة ومسترسلة، وهذا يرجع إلى حال الموصي وطريقة أسلوبه، كما في الوصية نفسها وذلك في قوله: (وإذا جاءتك رسل أعدائك فامنع الناس من محادثتهم حتى يخرجوا جاهلين كما دخلوها جاهلين).

كما نرى في بناء هذه الوصية أن الموصي اعتمد على ذكر الشيء ونتائجه، بمعنى أنه يقدم نصائحه ووصاياه، ثم يبين ما يترتب على ذلك من أحداث، كما في قوله (وكن بعيداً عن الحملة، فإنني لا آمن عليك من الجولة، ولا تقاثلن على جزع، فإنه فات بعضدك) ⁽¹⁾.

ومما يخصّ بناء بعض الوصايا التي وردت في هذا البحث أنها استفتحت الوصية بلفظة (أوصيكم بتقوى الله) وهذه اللفظة هي سرُّ جميع الوصايا الدينية لأن أساس الدين هو تقوى الله عزّ وجلّ، ثم أكد الجنيد الصوفي مرة أخرى على التقوى، فقال: (وأوصيكم بالقرآن) ⁽²⁾.

ومما يخصّ الشكل نلاحظ أن السجع غلب على بعض الجمل في بعض الوصايا فجاء عفو خاطر من غير تكلف، وهو جزء من الجانب الجمالي الذي من شأنه إيضاح المعاني والأفكار لتقريب الصورة للموصى له. ونرى ذلك في وصية زياد بن أبيه مثل: (حتى صاروا إلى دار ليس منها لهم أوبة ولا يقدرون فيها على توبة) ⁽³⁾، وفي وصية الجنيد: (إنّ النار لا يفك أسيرها، ولا يستغني فقيرها) ⁽⁴⁾.

ومن الملاحظ أيضاً أن وصية الجنيد الصوفي ووصية زياد بن أبيه بدأتا بذكر لفظ الجلالة (الله) وانتهتا به، فبدأ الجنيد وصيته بقوله: (أوصيكم بتقوى الله) وختمها بقوله: (وبالله المعونة على كل حال) ⁽⁵⁾.

وقد بدأ زياد بن أبيه وصيته بقوله: (إن الله عزّ وجلّ جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته) وختمها بقوله: (وأنا استخلفكم الله عزّ وجلّ عليكم، واستخلفه منكم) ⁽⁶⁾.

(1) انظر: التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج7، ص152.

(2) انظر: المصدر نفسه، ج3، ص18.

(3) انظر: المصدر نفسه، ج2، ص205-206.

(4) انظر: المصدر نفسه، ص18.

(5) انظر: المصدر نفسه، ج3، ص18.

(6) انظر: المصدر نفسه، ج2، ص52-53.

ب- أسلوبها:

1- الصورة:

برزت بعض الصّور البيانية في الوصايا التي وردت في كتاب البصائر والذخائر، كالتشبيه والكناية، ومن الواضح أن هذه الصور الفنية أضفت جمالية على المضمون، فهي التي زادت المعنى قوةً، واللفظ رصانة. وبالتالي جعلت من المتلقي أرضاً خصبة تثبت فيها الكلمات بسهولة ووضوح.

ظهرت صورة التشبيه في وصيّة الجنيد الصوفي في قوله: "أوصيكم بالقرآن فإنه نور الليل المظلم"⁽¹⁾، فقد شبّه القرآن الكريم بالنور الذي يضيء الظلمات. وكذلك في وصية زياد بن أبيه (فإن الدنيا دار فناء)⁽²⁾.

وقد برزت صورة الكناية أيضاً في وصية زياد بن أبيه في قوله: "حتى صاروا إلى دار ليس منها أوبة"⁽³⁾، فقد ذكر (دار ليس فيها أوبة) كناية عن الدار الآخرة التي تنقطع فيها الأسباب ولا يبقى سوى الحساب.

وكذلك في وصيّة أبي بكر الصديق إلى خالد بن الوليد: (ولتكن بعيداً عن الحملة)⁽⁴⁾، كناية عن اشتداد المعركة لأنه قائد جيش، فلا بدّ أن يحترس من جولات الأعداء.

2- اللغة:

اتسمت لغة الوصايا الإسلامية ببعدها عن التكلف والتعقيد، فجاءت بألفاظ قوية ومؤثرة، واضحة المعاني متسلسلة الأفكار متممة بوحدة الموضوع، حيث برزت أساليبها بأشكال مختلفة، وذلك لمقتضيات الحال التي يتضمنها موضوع الوصيّة.

ففي وصية أبي بكر الصديق إلى خالد بن الوليد برز أسلوب الأمر في بعض ألفاظها، وذلك ما يستدعيه المقام، حيث قال: (استكثر من الزاد، واستظهر بالأدلاء) و(فامنع الناس من محادثتهم) و(أقلل الكلام) و(كن بعيداً عن الحملة)⁽⁵⁾، فكرر هذا الأسلوب يدل على أهمية الأمر؛ لأن الوصيّة سياسية تتعلق بأمور الحرب وإدارة المعارك، لذا يكون فيها أسلوب الإلزام طاعياً كونه يصدر من الأعلى إلى الأدنى.

(1) التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج3، ص18.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص205-206.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص205-206.

(4) انظر: المصدر نفسه، ج7، ص152.

(5) انظر: المصدر نفسه، ج7، ص152.

ومن الأساليب الواردة في وصية أبي بكر الصديق ووصية زياد بن أبيه أسلوب النهي (ولا تقاتلن على جزع)⁽¹⁾ و (ولا يتكثر مما ليس له فيها)⁽²⁾. وكذلك أسلوب النفي في وصية الجنيد في قوله: (لا غنى بعد النار، ولا فقر بعد الجنة، وإن النار لا يفك أسيرها ولا يستغني فقيرها)⁽³⁾. وقول زياد بن أبيه في وصيته عن الدنيا (لا سبيل إلى بقائها، ولا بد من لقاء الله عز وجل)⁽⁴⁾.

وبرز أسلوب الشرط في ثانيا بعض الوصايا، كما في وصية أبي بكر (وإذا جاءتك بعض رسل أعدائك فامنع الناس من محادثتهم)⁽⁵⁾. وفي وصية الجنيد الصوفي (فإن عرضَ بلاءٍ فقدّم مالك دون نفسك) وفي الوصية نفسها ورد أسلوب التكرار بقوله: (أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن)⁽⁶⁾، وعلى النحو نفسه قول زياد بن أبيه (وأحذركم الله عز وجل الذي حذركم نفسه)⁽⁷⁾. وقد ورد أسلوب التوكيد في وصية زياد بن أبيه (فإن الدنيا دار فناء)⁽⁸⁾، وقد ورد الأسلوب نفسه في وصية الجنيد الصوفي متحدثاً عن فضل القرآن الكريم (فإنه نور الليل المظلم) كما ظهر في ختام الوصية نفسها أسلوب القسم (هذا والله الحد وما سواه تعليل)⁽⁹⁾، وقد جاء أسلوب التقديم والتأخير للدلالة على تأكيد المعنى المقصود لأهميته، وذلك في وصية زياد بن أبيه (ولله النعمة على المحسن)⁽¹⁰⁾.

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر، مصدر سابق، ج7، ص152.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص205-206.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص18.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص205-206.

(5) المصدر نفسه، ج7، ص152.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص18.

(7) المصدر نفسه، ج23، ص205-206.

(8) المصدر نفسه، ج2، ص206.

(9) المصدر نفسه، ج3، ص18.

(10) المصدر نفسه، ج2، ص206.

الخصائص العامة

أما الخصائص العامة التي تتعلق بمضامين الوصايا الواردة في هذا الكتاب، فهي كالآتي:

أولاً: التأثير بالجانب الديني تأثيراً مباشراً من حيث التركيز على النصائح الدينية بأسلوب دعوي هادف بعيداً عن العاطفة والخيال؛ والدعوة إلى تقوى الله عز وجل والعمل بأحكام كتابه العزيز، كما في وصية الجنيد الصوفي، فيقول: "أوصيكم بتقوى الله وأوصيكم بالقرآن..."⁽¹⁾.
ثانياً: غلبة طابع الزهد على الشكل العام لبعض الوصايا، كما في وصية زياد بن أبيه، فيقول "...فما أولى من تمت عليه النعمة في نفسه، ورأى العبرة من غيره، أن يضع الدنيا بحيث وضعها، فيعطي ما عليه منها، ولا يتكثر مما ليس له فيها ... فإن الدنيا دار فناء لا سبيل إلى بقائها..."⁽²⁾.

ثالثاً: التحذير من عقاب الله عز وجل، وذلك في وصية زياد بن أبيه أيضاً، فيقول: "... وأحذركم الله عز وجل الذي حذركم نفسه ..." ⁽³⁾.

رابعاً: تتضمن بعض الوصايا أسلوب التهيب والترغيب، كما في وصية الجنيد الصوفي، فقال: "... وإنه لا غنى بعد النار، ولا فقر بعد الجنة، وإن النار لا يفك أسيرها، ولا يستغنى فقيرها ..." ⁽⁴⁾.

خامساً: رسم سياسة لإدارة الحرب، وذلك في وصية أبي بكر الصديق إلى خالد بن الوليد ففي بعض غزواته، فيقول: "... وإذا جاءتك رسل أعدائك فامنع الناس من محادثتهم حتى يخرجوا جاهلين كما دخلوها جاهلين، وأقلل الكلام..." ⁽⁵⁾.

سادساً: تُعدُّ هذه الوصايا من الوصايا الإسلامية، والتي اتسمت بالعمق الفكري والروحي، وذلك لما تحمله من قيم ومبادئ جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأقوال التابعين وما جاء على لسان الزُّهَّاد والنسَّاك والوعاظ⁽⁶⁾.

(1) (التوحيد، البصائر والذخائر، مصدر سابق ، ج3، ص18.

(2) (المصدر نفسه، ج2، ص 205-206.

(3) (المصدر نفسه ، ج2، ص 205-206.

(4) (المصدر نفسه، ج3، ص18.

(5) (المصدر نفسه ، ج7، ص 152.

(6) (أنظر: شدوح، علاء محمد، النقد الأدبي في فن الوصايا، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد: الأردن ، 2006م، ص33.

الخاتمة:

- توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج ملخصة على النحو الآتي:
- 1- تضمن كتاب البصائر والذخائر أشكالاً نظرية عديدة ومتنوعة المصادر والموضوعات والوظائف.
 - 2- تبوأ الأمثال في كتاب البصائر والذخائر مركز الصدارة بين الأشكال التعبيرية النظرية الأخرى، وقد وصل عددها ما يقارب مئتين مثل، ثم تلتها الرسائل، ثم الخطب، ثم التوقيعات وأخيراً الوصايا.
 - 3- تضمن كتاب البصائر والذخائر جميع أنواع الأمثال، القديمة، والمولدة، وأمثال العامة.
 - 4- شكلت الرسائل الإخوانية في كتاب البصائر والذخائر الجزء الأكبر قياساً إلى الأنواع الأخرى للرسائل.
 - 5- تشابهت معظم الأشكال النظرية في كتاب البصائر والذخائر من حيث مصادرها وموضوعاتها.
 - 6- تشابهت الرسائل والخطب تشابهاً واضحاً من حيث الموضوع والوظيفة في كتاب البصائر والذخائر.
 - 7- تبين أن التوقيعات نشأت نشأة عربية خالصة مع تأثرها بالموروث الفارسي.
 - 8- لم تقتصر التوقيعات على إنشاء الموقع، بل تعدت إلى أن يكون التوقيع بآية قرآنية، أو بيت من الشعر، أو مثل سائر، أو حكمة .
 - 9- اقتصرت مصادر الوصايا الواردة في كتاب البصائر والذخائر على العصر الإسلامي، صدر الإسلام، الأموي، العباسي.
 - 10- تضمنت الرسائل الواردة في كتاب البصائر والذخائر الجانبين الديني والسياسي فقط.
 - 11- تضمنت الأشكال النظرية عدة صور بلاغية، كان للتنبيه والاستعارة ظهوراً بارزاً فيها.
 - 12- تشابهت الأمثال والتوقيعات تشابهاً واضحاً من حيث الإيجاز.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر القديمة القرآن الكريم

- ابن الأثير، ضياء الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، (ت 637هـ)،
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: الحوفي، أحمد، طبابه بدوي، ط2،
دار الرفاعي، الرياض، 1893م.
- الأصبهاني، الإمام حمزة بن الحسين، (ت 351هـ)، الدرة الفاخرة في الأمثال
السائرة، تحقيق: عبد المجيد قطاش، د.ط، دار المعارف، د.ت.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (ت 256هـ)، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد
الباقي، ط3، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1989م.
- التوحيد، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، (ت 414هـ)، البصائر والذخائر،
تحقيق وداد القاضي، ط5، دار صادر، بيروت، 2010م.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، (ت: 429هـ)، خاص الخواص، تحقيق:
حسن الأمين، د.ط، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، (ت 429هـ)، تحفة
الوزراء، تحقيق: حبيب علي الراوي، وابتنسام مرهون الصقار، د.ط، مطبعة العاني،
بغداد، 1977م.
- الجاحظ، عمر بن بحر بن محبوب الكنان، (ت: 255هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق:
عبد السلام محمد هارون، د.ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، (ت 255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد
السلام هارون، ط1، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 2010م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، (ت 626هـ)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس،
ط1، دار الغرب الإسلامية، بيروت، 1993م.
- الرازي، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، ت 395هـ، معجم مقاييس اللغة،
تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د.ط، دار الفكر، 1979م.

- السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين بن أبي بكر، (ت 911هـ)، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- الشيباني، أبو المحاسن محمد بن علي العبدري، (ت 837هـ)، تمثال الأمثال، تحقيق: أسعد ذبيان، د.ط، دار المسيرة، بيروت.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، (ت: 335هـ)، أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، د.ط، المطبعة السلفية، مصر، 1341هـ.
- الطيبي، المفضل بن محمد، (ت: 178هـ)، أمثال العرب، تحقيق: د. احسان عباس، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، 1981م.
- العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل (395هـ)، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، المكتبة العصرية، بيروت، 1414هـ.
- الفارابي، أبو إبراهيم، ديوان الأدب، تحقيق: عادل عبد الجبار الشاطي، د.ط، د.م، 2003م
- الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، ت 817هـ، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت 170هـ)، كتاب العين، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (ت 841هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ويوسف علي الطويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
- الكلاعي، أبي القاسم محمد بن عبد الغفور، (ت 550هـ)، إحكام صناعة الكلام، تحقيق: الدكتور محمد رضوان الداية، د.ط، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن، (ت 421هـ)، شرح الفصيح لثعلب، تحقيق: سليمان بن إبراهيم العايد، د.ت.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، (ت 711هـ)، لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، (ت 518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، د. ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- الواحدي، علي بن أحمد بن محمد، (ت 468هـ)، الوسيط في الأمثال، تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن، د.ط، دار الكتب الثقافية، الكويت، 1975م.

ثانياً: المراجع الحديثة:

- ألتونجي، محمد، المعجم المفصل في الأدب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- أمين، فوز محمد، في النثر العباسي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000م.
- أمين، فوزي محمد، في النثر العباسي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000م.
- الحاج حسن، حسين، أدب العرب في صدر الإسلام، ط1، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1992م.
- حامد، محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، ط1، دار العلم والإيمان، دسوق، 2010م.
- حجاب، محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ط1، المطبعة الفنية الحديثة، مصر، 1965م.
- حمود، خضر موسى محمد، الجواظ في الأدب العربي، ط1، عالم الكتب، بيروت، 2006م.
- الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، ط5، دار نهضة مصر، القاهرة.

- الخفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، ط2، الكتاب اللبناني، بيروت، 1980م.
- داوود، أماني سليمان، الأمثال العربية القديمة، ط1، دار الفارس، الأردن، 2009م.
- الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، دار الفكر، عمان، 1999م.
- الدروبي، محمد محمود، وجرار، صلاح محمد، جمهرة توقيعات العرب، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2001م.
- رضا، غانم جواد، الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011م.
- رضا، غانم جواد، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، د. ط، المكتبة الوطنية، بغداد، 1978م.
- الزبيدي، محمد مرتضى بن محمد الحسيني، ت 1205هـ، تاج العروس من جواهر القاموس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م.
- زلهام، رودلف، الأمثال العربية القديمة، تحقيق: رمضان عبد التواب، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م.
- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، د. ط، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت.
- أبو زيد، سامي يوسف، الأدب العباسي النثر، ط1، دار المسيرة، عمان، 2011م.
- السامرائي، إبراهيم، في الأمثال العربية، د. ط، مطبعة حكومة الكويت، د. ت.
- الشكعة، مصطفى، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993م.
- شلق، علي، أبو حيان التوحيدي والقرن الرابع الهجري، ط1، دار الاجتهاد، بيروت، 2003م.

- الشيخ، محمد عبد الغني، أبو حيّان التوحّيدي رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، د.ط، الدار العربية للكتاب، د.ت، 1983م.
- الصّقار، ابتسام مرهون، الأمالي في الأدب الإسلامي، د. ط، دار الحكمة، بغداد، 1991م.
- الصمد، واضح، أدب صدر الإسلام، ط1، المؤسسة الجامعية، لبنان، 1994م.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ط7، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ضيف، شوقي، العصر الإسلامي، ط20، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، د. ط، دار المعارف، مصر، د.ت.
- ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ط6، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط12، دار المعارف، مصر، د.ت.
- طنوش، وهيب، في النثر العباسي، د. ط، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، 1989م.
- علي، محمد كرد، أمراء البيان، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1969م.
- أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1988م.
- عمر، فائز طه، النثر الفني عند أبي حيّان التوحّيدي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000م.
- الغول، فائز علي، والكيالي، عبد الرحمن، القريب في تاريخ الأدب، ط خاصة، مكتبة الاستقلال، عمان، 1959م.
- الفاخوري، حتّا، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ط1، دار الجيل، بيروت، 1985م.
- الفاخوري، حتّا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، د. ط، دار الجيل، بيروت، د.ت.

- فارس، أحمد، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ط1، دار الأمان، بيروت، 1993م.
- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1984م.
- الفريخ، سهام، الوصايا في الأدب العربي القديم، ط1، مكتبة المعلا، الكويت، 1988م.
- الكيلاني، إبراهيم، رسائل أبي حيان التوحيدي، د. ط، دار طلاس، سوريا، د.ت.
- الكيلاني، إبراهيم، من كتاب الإمتاع والمؤانسة، د. ط، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978م.
- مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2010م.
- محمد علي، كمال، حكايات الأمثال والحكم العربية، ط1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1998م.
- مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، ط1، مكتبة الهلال، بيروت، 1995م.
- المقداد، محمود، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ط1، دار الفكر، دمشق، 1993م.
- المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1982م.
- مئاع، هاشم صالح، الأدب العباسي، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 2011م.
- مئاع، هاشم، وياسين، مأمون، النثر في العصر العباسي، دار الفكر، ط1، بيروت، 1999م.
- نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005م.
- النورسي، رونك توفيق، وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م.

- الهادي صلاح الدين، الأدب في عصر النبوة والراشدين، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م.

- الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، 1362هـ، جواهر البلاغة، تحقيق: الدكتور يوسف الصميلي، د. ط، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت.

ثالثاً: الرسائل الجامعية:

- الحراحشة، أميرة عبد المولى حمد، أدب التوقيعات في العصر العباسي، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت، المفرق: الأردن ، 2004م.

- السالم، عبد الله محمد، النثر الفني في مصر وبلاد الشام في القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد: الأردن، 1993م.

- شدوح، علاء محمد، النقد الأدبي في فن الوصايا، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد: الأردن، 2005م.

- عبيد، محمود عبد الملك، الأمثال العربية في العصر الجاهلي، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد: الأردن، 1983م.

- لطفي، يوسف أسعد، أشكال التعبير النثري في كتاب الحيوان، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت، المفرق: الأردن، 1999م.

رابعاً: البحوث:

- الدخيل، حمد بن ناصر، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج13، ع22، 1422هـ.

- الدروبي، محمد محمود، مواقف الدارسين العرب المعاصرين من نشأة التوقيعات وعروبته، مجلة كلية الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الخامس والعشرون، 2002م.

Abstract

Forms of Prose Expression in Ibi Hayyan al-Tawhidi's Work Entitled al-Basair wal-Dhakhair. A Topical, Artistic Study

This study aims at standing on the forms of prose expression in Al – Basaer wa Al – dhakair by abi Hayyan Al – Tawhidi, an objective article study, because it is a textbook with various prose forms.

This study came in an introduction, interface, two chapters, and conclusion. The interface included the speech about the place of Abi Hayyan Al – Tawhidi among his period scholars, and about the features of his literature, such as the variety of his subjects in addition to his scientific and literature personality, then, his biography, which included his name, identity, birth, origin, and culture, the speech about his book Al – Basaer wa Al – Dhakair, and its resources, scientific and literature value, the divisions of this book, and the early and modern scholars attention with this book.

The first chapter specialized with the subjective study for the forms of prose expression in this book, such as: proverbs, messages, discourses, signs, and recommendations. that raised main questions in this research, such as:

- What are the types of prose expression forms in the book of Al – Basaer and Al- Dhakhair?
- What are the researches from which these forms are taken?
- What are the functions of each form of these forms?
- What are the subjects that these forms investigated?

The study investigated in its second chapter the features of article construction for each form of these forms such as its structure, the

manner that the image and language include, in addition to the general features that characterize each form of these forms.

It's clear that this book included texts and news that enrich the literature heritage in the fourth Hijri Century; that more of them were collected from the encyclopedia, and formed a clear image about Al – Tawhidi prose attention. So, this book became an original resources of Arab prose resources, thus, it has a large literature value.